دكتور
محفوظ علي عزام
كلية الدراسات العربية / جامعة المنيا

الأخلاق في الإسلام
بين النظرية والتطبيق

الطبعة الأولى

١٤٠٧ هـ — ١٩٨٦ م

دار الهداية
للطباعة والنشر والتوزيع

الأخلاق فى الإسلام

بين النظرية والتطبيق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء ، أحمده حمدا لا منتهى لحده ، ولا حساب لعده ، ولا مبلغ لغايته ، ولا انقطاع لأمده .. حمدا يكون وصلة الى عفوه ، وسببا الى رضوانه ، وذريعة الى مغفرته ، وعونا على تأدية وظائفه .

وأصلى وأسلم على امام المتقين وسيد العالمين محمد عبد الله ورسوله الذى بلغ الرسالة وأدى الأمانة وترك الناس على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، والذى امتدحه ربه بقوله : « وانك لعلى خلق عظيم » ، والذى قال عن نفسه « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ، والذى قالت عنه عائشة رضى الله عنها : « كان خلقه القرآن » .

وأعوذ بالله من شرور نفسى وسيئات أعمالى .. وبعد .

فهذا كتاب عن « الأخلاق فى الاسلام بين النظرية والتطبيق » ، وقد قسمته الى بابين ، وكل باب الى فصلين ، فكان الكتاب بذلك فصولا أربعة .

ولقد عالج الباب الأول الأخلاق النظرية فى فصلين ، تحدث الأول منهما عن علم الأخلاق وأهميته ، وقد عرض لتعريف الأخلاق والعلم الخاص بها ، وموضوعه ، وبين الغاية من الأخلاق وضرورتها لاستقامة الحياة وعمارتها .

كما تناول الفصل الثانى عشر الأسس الخلقية المتمثلة فى الالزام الخلقى ومصادره ، والمسئولية الأخلاقية والجزاء الأخلاقى المترتبين

على الالزام ، والنية والدافع وقيمته فى خيرية العمل وشريته ، وتناول كذلك مسألة تطور القيم الخلقية وبين ثباتها •

أما الباب الثانى فقد عالج الأخلاق العملية فى فصلين ، تناول الأول منهما نماذج من الأخلاق الفاضلة ، أو الحميدة ، تمثلت فى آداء الأمانة والشجاعة والجهاد ، وتحدث الفصل الثانى عن بعض النماذج للاخلاق غير الفاضلة وغير الحميدة ، وتمثل ذلك فى خلقين ذميمين هما النفاق والظلم •

ولم أشأ أن أسير على منوال بعض الباحثين عندما يكتبون فى الأخلاق ، فنراهم يتحدثون عن الأخلاق عند الغربيين بادئين باليونان ومنتهين بالعصر الحديث ، أو نراهم يتحدثون عن مذاهب اللذة والمنفعة والسعادة وغير ذلك ، أو يتحدثون عن فلاسفة مثل بنتام أو غيره ، مع أننا لا نجد خلقا فاضلا الا فى دين صحيح هو الاسلام •

لهذا كان مصدرنا فى هذه الدراسة هو القرآن والسنة فهما مصدرا التشريع ومن ثم فهما مصدرا الأخلاق •

ولا أحد يستطيع أن ينكر قيمة الأخلاق فى الاسلام فهى لب الاسلام وجوهره ، بل هى جوهر الرسالات كلها • وما ذلك الا لأن الأخلاق عماد الحياة بأسرها ، والحياة اذا خلت من القيمة الخلقية انتهت الى خراب ودمار •

والكتاب محاولة لتأصيل علم الأخلاق الاسلامى المتحرر من الفكر الغربى فى جميع صوره • فان كنت قد وفقت فى هذه المحاولة فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، وان كانت الأخرى فحسبى أنى قد حاولت•

وعلى الله قصد السبيل •

الجيزة فى ٦/٩/١٩٨٦ •

د• محفوظ على عزام

الباب الأول

الأخلاق النظـرية

الفصل الأول : علم الأخلاق وأهميته •

الفصل الثانى : أسس الأخـلاق •

الفصل الأول

علم الأخلاق وأهميته

١ ـ تعريف الأخـــلاق

نجد فى اللغة العربية مصطلحين يرتبطان بالمجال الأخلاقى ، هذان المصطلحان هما : الأخلاق والآداب غير أنه يجب القول بأننا لا ينبغى لنا أن نخلط بينهما ، فقد استعملت كلمة « أدب » للدلالة على الحـكم القصار والجمل التى تعبر عن المعانى الخلقية ، وغالبـا ما تكـون فى صيغة الجمع ، وأحيانا تكون فى صيغة المفرد . فقد جاءت كتب تحمـل اسم « الأدب » مثل كتاب « أدب الدنيا والدين » لأبى الحسن الماوردى، ومثل كتابى « الأدب الكبير » و « الأدب الصغير » لابن المقفع ، وهى تدل على معان خلقية مختلفة . ومن ناحية أخرى فالأدب أقل عمقا من الأخلاق وأكثر شمولا منها ، لأن معناه يتضمن ثقافة أدبية حسنة لاسبيل الى عدها بين الفضائل ، أو على الأقل بين أمهات تلك الفضائل ويرتبط بالأخلاق من جهة أخرى ما يسمى بالنصائح ، والوصايا (١) .

(أ) الأخـــلاق فى اللغة :

الأخلاق جمع خلق ، والخلق فى اللغة هو السجية والطبع والطبيعة والمروءة والدين . وحقيقته أنه وصف لصورة الانسان الباطنة ، وهى نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظـاهرة وأوصافها ومعانيها ولهما أوصاف حسنة وقبيحة (٢) .

وقيل : ما أخذ به الانسان من الأدب يسمى خلقا ، لأنه يصـير كالخلقـــة فيـه .

---

(١) كارادى فو : مقال بدائرة المعارف الاسلامية جـ ٢ ص ٤٣٧ ، ٤٤٥ ـ ٤٤٦ .

(٢) ابن منظور : لسان العرب مادة « خلق » .

ومعنى هذا أن الخلق حال للنفس ، وفعل من أفعالها ، تقوم به باستمرار ، بحيث يصبح عادة وطبعا لها ، وطريقا ومنهاجا تسلكه وتسير تبعا له • أى أن الفعل اذا صدر عن النفس مرة واحدة أو فى ظروف معينة لا يعد خلقا لها • اذ الغرض من تعريف الخلق بأنه السجية والطبع والدين أن يكون الفعل راسخا فى النفس الانسانية بحيث يقال عن صاحبه أن ذلك خلق له اذا صدر ذلك الخلق عنه •

والمعانى اللغوية لكلمة « الأخلاق » تدل على أن للأخلاق جانبين، أحدهما : نفسى باطنى ، والآخر سلوكى ظاهرى ، أى أن الأخلاق نفسية أو معنوية ومظهرها الخارجى هو ما نسميه المعاملة أو السلوك فالأخلاق مصدر ، والسلوك مظهر •

كما أن الأخلاق تدل على الصفات التى اكتسبت وأصبحت كأنها خلقت مع طبيعة الانسان •

(ب) الأخلاق فى الاصطلاح :

هناك تعريفات كثيرة للأخلاق فى معناها الاصطلاحى نكتفى بذكر بعض النماذج لهذه التعريفات •

يقول مسكويه : « الأخلاق حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية ، وهذه الحال تنقسم الى قسمين : منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج ، كالانسان الذى يحركه أدنى شىء نحو غضب، ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدرب ، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ثم يستمر عليه أولا فأولا حتى يصير ملكة وخلقا » (٣) •

---

(٣) مسكويه : تهذيب الأخلاق ص ٣١ •

وهذا التعريف يعد تعريفا ناقصا من حيث المصطلح ، وذلك لأن الفعل الخلقى يجب أن يتصف بصفتين أساسيتين هما : الارادة،والقيمة الجمالية للفعل • فلا نستطيع أن نسمى فعلا ما بأنه فعل خلقى الا اذا كان صادرا عن ارادة حرة حكيمة ، كما أنه لا بد أن يحتوى على الحكم بأنه خير أو شر •

ويقول الجرجانى فى تعريف الخلق : « الخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية ، فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلا وشرعا بسهولة سميت الهيئة خلقا حسنا ، وان كان الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئا وانما قلنا انه هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال على الندور بحالة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك فى نفسه ، وكذلك من تكلف السكوت عند الغضب بجهد أو روية لا يقال خلقه الحلم ، وليس الخلق عبارة عن الفعل ، فرب شخص خلقه السخاء ، ولا يبذل اما لفقد المال أو لمانع ، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل لباعث أو رياء » (٤) •

يبدو أن هذا التعريف مأخوذ من الغزالى فى كتابه القيم « احياء علوم الدين » ، اذ هو مذكور فيه ، وفى غيره من كتب الغزالى •

على أية حال ، هذا التعريف الذى نقلناه عن « الجرجانى » لا يفرق بين الحكم على الشىء بأنه خير أو شر وبين الحكم عليه بأنه جميل أو قبيح •

كما أن هناك تعريفات أخرى للأخلاق ، فهى تعرف بأنها « قواعد السلوك » ، أو أنها « علم الواجب وعلم الخير والشر » •

---

(٤) الجرجانى : التعريفات ص ٩٠ ــ ٩١ •

ويذكر « لالاند » فى معجمه عدة تعريفات للأخلاق هى :

١ ـ فهى قد تعنى « مجموع قواعد السلوك مأخوذة من حيث هى غـــير مشــروطة » •

٢ ـ وقد يقصد بها العمل ، أو ان شئت الدقة « السلوك المطابق للأخلاق » حين يتحدث عن تقدم الأخلاق •

٣ ـ وقد تعنى من جهة ثالثة « نظرية عقلية فى الخـــير والشر » وبهذا المعنى الأخير عرفت الأخلاق من جهة أنها علم معيارى (٥) •

ويعرفها بعض الباحثين بأنها : « أسلوب معين من السلوك ، يرمى الى تحقيق الخير فى الحياة الانسانية ، وتحقيق الانسجام بين الفرد وربه ، وبين الفرد ومجتمعه ، وبين الفرد وذاته ، دون اخلال بعاملى الارادة الحرة المستنيرة ، وصلاحية الفعل للحكم عليه بأنه خـــير ويستحق المدح أو شر ويستوجب الذم » (٦) •

ويلاحظ على هذه التعريفات السابقة أن بعضها مهتم بالنـــاحية العملية فى الأخلاق ، وأن بعضها الآخر يهتم بالناحية النظـــرية وأن بعضها يجمع بين الناحيتن النظرية والعملية •

(جـ) مفهوم الأخلاق فى الاسلام :

الأخلاق فى الاسلام هى عبارة عن المبادىء والقواعد المنظمـــة للسلوك الانسانى التى يحددها الوحى لتنظيم حياة الانسان على نحو يحقق الغاية من وجوده فى هذا العالم على الوجه الأكمل والأتم •

---

(٥) د٠ عبد الرحمن بدوى : الأخلاق النظرية ص ٨ ٠

(٦) د٠ سهير محمد مختار : محاضرات فى الأخلاق ص ١٩ ٠

ويتميز هذا النظام الاسلامى فى الأخلاق بطـابعين ، أما الأول فهو طابع الهى ، أى أنه مراد لله سبحانه ، وأما الثانى فهـو طابع انسانى ، أى أن للانسان مجهودا ودخلا فى تحديد هـذا النظام من النـاحية العمليـة .

فهذا النظام من الأخلاق هو نظام من العمل من أجل الحيـاة الخيرة ، أى أنه طراز السلوك وطريقة التعامل مع النفس والله والمجتمع.

وهو نظام يتكامل فيه الجانب النظرى مع الجانب العملى منه . وهو ليس جزءا من نظام الاسلام العام ، بل هو جوهر الاسلام ولبـه وروحه السارية فى جميع نواحيه ، اذ النظام الاسلامى — على وجـه العموم — مبنى على فلسفته الخلقية فى الأساس . بل ان الأخلاق هى جوهر الرسالات السماوية على الاطلاق .

فالرسول صلى الله عليه وسلم يقـول : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (٧) وفى رواية أخرى : « انمـا بعثت لأتمم صـالح الأخلاق » (٨) . فالغرض من بعثته هو تمام مكارم الأخـلاق ، بل الهدف من كل الرسالات هدف أخلاقى بل ان الدين نفسه هو حسـن الخلق . بل ان الاسلام حسن الخلق .

فروح الاسلام روح أخلاقية ، هدفه فى الحيـاة تحقيـق غاية أخـلاقية .

هذه الروح ينطق بها كل جانب من جوانب الاسـلام ، فعلى سـبيل المثـال :

---

(٧) رواه الامام مالك فى الموطأ والامام أحمد فى مسنده .

(٨) مسند الامام أحمد .

نجدها فى جانب العقيدة حيث يربط الله – سبحانه – ورسوله صلى الله عليه وسلم بين الايمان وحسن الخلق • يقول عليه السلام : « ان من أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا ، وألطفهم بأهله » (٩) • ثم ان الاسلام عد الايمان برا فقال تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين » (١٠) • ومن المعروف أن البر صفة للعمل الأخلاقى أو هو اسم جامع لأنواع الخير •

كما نجدها فى العبادة ، اذ أن روح العبادة روح أخلاقية فى جوهرها لأنها أداء الواجبات الالهية • ونجدها – أيضا – فى المعاملات • وهى الشق الثانى من الشريعة الاسلامية ، بصورة أكثر وضوحا •

ومن الأدلة على ذلك ما نجده من اعتراف علماء الشريعة أنفسهم بذلك ، فهم يقولون – فى معرض بيانهم لمقاصد الشريعة – ان مقاصد الشريعة ثلاثة وهى تحقيق الضروريات والحاجيات والتحسينات للانسان فى هذه الحياة • والضروريات عندهم هى الأمور التى لا بد منها فى قيام مصالح الدين والدنيا ، بحيث اذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة ، بل على فساد وتهارج وفوت حياة وفى الأخرى فوت النجاة والنعيم ، والرجوع بالخسران المبين •• ومجموع الضروريات خمسة • وهى : حفظ الدين ، والنفس ، والنسل ، والمال ، والعقل » (١١) •

---

(٩) رواه الترمذى والحاكم • انظر : المنذرى : الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٤٠٣ •

(١٠) سورة البقرة ١٧٧ •

(١١) الشاطبى : الموافقات فى أصول الشريعة جـ ٢ ص ٨ ، ١٠ •

وأما الحاجيات فهى الأمور التى يحتاج اليها الانسان فى هـذه الحياة لرفع الضيق والحرج والمشقة التى تكون نتيجة عدم تحقيـق بعض المطالب مثل تحقيق كل حاجيات الانسان بشىء من السـعة والرفاهية من المأكل والمشرب والملبس والمسـكن وازالة ما يؤدى الى الضيق والحرج فى بعض الظروف كالتخفيف عن المكلف بالرخص بعض التكاليف فى حالات الاضطرار • وأما التحسينات فهى اتخاذ أجمـل وأحسن الأساليب فى حالة معاشرة النـاس ومراعاة شـعورهم واحساساتهم الأدبية ، أو بعبارة الشاطبى : « الأخـذ بما يليق من محاسن العادات ، وتجنب الأحوال المدنسات التى تأنفهـا العقـول الراجحات » (١٢) •

وهكذا نرى أن الاسلام قد ارتبطت جوانبه برباط أخـلاقى لتحقيق غاية أخلاقية ، الأمر الذى يؤكد أن الأخلاق هى روح الاسلام، وأن النظام التشريعى الاسلامى هو صورة مجسـمة لهذه الروح الأخـلاقية •

هذا ونشير فى نهاية هذا التعريف بالأخلاق الى أن الخلق نوعان:

(أ) خلق حسن وهو الأدب والفضيلة ، وينتج عنه أقوال وأفعال جميلة عقـلا وشرعا •

(ب) خلق سيىء : وهو سوء الأدب والرذيلة ، وينتج عنه أقوال وأفعال قبيحة عقلا وشرعا (١٣) •

وتنقسم الأخلاق من جهة أخرى الى :

١ ــ أخلاق نظرية : وهى عبـارة عن مذهب خاص ، مؤلف من

---

(١٢) المرجع السابق ص ١١ •

(١٣) د• عبد اللطيف العبد : الأخلاق فى الاسلام ص ٧ ــ ٨ •

قواعد للسلوك • وله مبادىء يستخلص منها قوانين يسير عليها الانسان فى شتى الأماكن ومختلف الأزمان •

٣ — أخلاق عملية : وهى عبارة عن مجموع قواعد السلوك التى بمراعاتها يمكن للانسان أن يبلغ غايته القصوى ، ويصل الى السعادة والخير الأسمى (١٤) •

٢ — تعريف علم الأخلاق

علم الأخلاق من العلوم التى تبحث عن الحقيقة ، ومن ثم فهو يستهدف البحث عن المعرفة • وهو من هذه الزاوية علم فلسفى معيارى ، فهو يبحث عن حقيقة الأشياء ، حيث يكشف عن صواب أو خطأ السلوك الانسانى ، أو عن كونه خيرا أو شرا •

والأخلاق علم ينطبق عليه تعريف العلم ، اذ يمكن تحديد العلم بأنه « نسق معرفى لمجموعة وقائع جزئية مترابطة » (١٥) وكلمة«نسق» هنا كلمة مهمة ، لأنها هى التى تميز المعرفة العلمية عن المعرفة العادية التى تتصف بالعشوائية وعدم الترابط •

أما تعريف علم الأخلاق فهو يعرف بأنه : « علم يبحث فى الأحكام القيمية الى تنصب على الأفعال الانسانية من ناحية أنها خير أو شر » (١٦) •

---

(١٤) د• سهير مختار :محاضرات فى الأخلاق ص ١٢٠ •

(١٥) وليام ليلى : المدخل الى علم الأخلاق — ترجمة د• على عبد المعطى محمد ص ٣٦ •

(١٦) المعجم الفلسفى ص ١٢٤ •

ويعرف أيضا بأنه « العلم المعيارى لسلوك الكائنـــات البشرية التى تحيا فى المجتمعات •• وأنه العلم الذى يحكم على مثـل هـــذا السلوك بالصواب أو الخطأ ، بالصلاح « أو بالطلاح » (١٧) •

ويذكر « كارادى فو » تعريفا لعلم الأخلاق قال به صـدر الدين الشروانى حيث حده بأنه « علم بالفضائل وكيفية اقتنائهـــا لتتحلى النفس بها ، وبالرذائل وكيفية توقيها لتتخلى عنها » (١٨) •

فاذا أضفنا الى هذه التعريفات عبارة « على أساس من الوحى » لخرجنا بتعريف لعلم الأخلاق الاسلامى • اذ يمكن تعريف علم الأخلاق الاسلامى بأنه « علم يبحث فى الأحكام والمعايير والمبـادىء التى عن طريقها يوصف السلوك الانسانى بأنه فضـــيلة فتقتنى أو أنه رذيلة فيتخلى عنها ، حتى تزكو النفس الانسانية ، وذلك على أســاس من الوحى الذى جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم » •

فهذا العلم يدور حول تنظيم سلوك الانسان مع نفسه ، ومع الله، ومع الناس ، وينبه الانسان الى الخير ليسعى اليه ويحرص عليــه ، والى الشر ليبتعد عنه ويتجنبه • وعلى الرغم من ربط عـلم الأخــلاق بالدين فانه سيظل علما عقليا •

وأشهر تقسيمات هذا العلم أنه ضربان : « عملى : ويسمى عــلم السلوك ، أو الأخلاق العملية ، ونظرى : وهو الذى يبحث فى حقيقـة الخير والشر والقيم الأخلاقية من حيث هى » (١٩) •

غير أن « وليام ليلى » يورد لنا ستة أنواع من علوم الأخـــلاق أو ستة أنواع من الأنساق الأخلاقية هى :

---

(١٧) وليام ليلى : المدخل الى علم الأخلاق ص ٣٥ •

(١٨) دائرة المعارف الاسلامية ج ٢ ص ٤٣٦ ــ ٤٣٧ •

(١٩) المعجم الفلسفى ص ١٢٤ •

١ ــ العلم الوضعى للأخلاق : وهو الذى يصف المعايير الأخلاقية للناس فى المناطق المختلفة وطبقا لتنوع سنوات العمر •

٢ ــ العلم المعيارى للأخلاق : وهو الذى يقرر صحة المعـــايير الخلقيـــة •

٣ ــ الفلسفة الأخلاقية : وهى تبحث صحة تلك المعايير من خلال موضعها فى اطـــار كلى عـــام •

٤ ــ علم الأخلاق التطبيقى : وهو يطبـــق المعـــايير الأخـــلاقية الصحيحة على حالات جزئية معينة •

٥ ــ التهذيب الأخلاقى : وهو يســـتهدف تحســـين الســـلوك وتشـــــذيبه •

٦ ــ فن مزاولة الحياة الصالحة (٢٠) •

أما عن المنهج الأخلاقى ومن أين نأخذه ، فانى أقـــول لا بد من أخذه من القرآن والسنة فهما المصدران الأساسيان لكل تشريع ونظام• واذا كان الفيلســـوف الانجليزى « جون لوك » يذكر « أن الله لم يكن يضن على البشرية بهذه الدرجة ، وذلك بأن يجعلهم مخلوقات من ذوات الرجلين ثم يترك الأمر لأرسطو كى يجعلهم كائنات عاقلة ••• لقـــد منح الله الانسان عقلا يفكر به دون أن يحتاج الى تعلم طرق القياس » فانى أقول : ان الله لم يترك الأمر لأساتذة الأخلاق وفلاســـفته لكى يبينوا لنا الفارق بين الخير والشر ، اذ ليس من شأن هؤلاء الرجال أن يخلقوا المعايير الأخلاقية من لا شىء أو من فراغ •

---

(٢٠) وليام ليلى : المدخل الى علم الأخلاق ص ٤٢ •

٣ – موضوع علم الأخلاق

موضوع علم الأخلاق هو السلوك الانسانى من حيث كونه خيرًا أو شرا • وهو فى دراسته لهذا السلوك يقومه وفق معيار أخلاقى معين ، أى أن هذا العلم يهتم بالقيم لا الوقائع ، فهو يدرس ما يجب أن يكون لا ما هو كائن بالفعل ، أما ما هو كائن فعلا من السلوك الانسانى فقد تكفل به علم النفس وعلم الاجتماع •

فموضوعه أحكام تقويمية يقاس بها السلوك وليست أحكاما تقريرية • ولهذا فان علم الأخلاق يندرج فى الفلسفة تحت مبحث القيم التى هى الحق والخير والجمال ، فاذا كان المنطق يدرس معيار الصدق ، واذا كان علم الجمال يبحث عن ماهية الجمال أو ما به يكون الشىء جميلا ، فان علم الأخلاق يدرس الخير فى صوره المتعددة المتنوعة وهو يهدف الى فهم طبيعة الحياة الخلقية •

هذا ، ويكاد يكون أمر اصدار الحكم بأن هذا الفعل خير وذاك شر قاصرا على علم الأخلاق باستثناء علم ما بعد الطبيعة • ومن هنا فان علينا أن نميز بين ثلاثة أنواع من السلوك الانسانى •

أما الأول فهو السلوك الناتج عن الغرائز الطبيعية والعادات الفردية • وهذا النوع ثابت الى حد كبير ، ولكن هذا الثبات يمكن أن يكون نسبيا فى الانسان ، فبكثير من الجهد يستطيع الانسان أن يتحرر من بعض غرائزه بكبتها أو بالقضاء عليها وذلك فى أحوال نادرة ، لأن مقاومتها صعبة وعسيرة جدا •

والنوع الثانى هو السلوك الناشىء عن العادات الاجتماعية والعرف الاجتماعى • وهذا النوع أيضا فيه الكثير من الثبات والجبر، مع اختلاف العادات الاجتماعية من بيئة الى أخرى زمانا ومكانا •

أما النوع الثالث فهو السلوك الناشىء عن العادات الأخلاقية • وهذا النوع يلتزم به الانسان خوفا من العقاب الذى يحـــل به من المجتمع ، أو من الله ، كما أنه يجد من نفسه باعثا داخليا على القيـــام به وهو ما يسمى بالشعور الخلقى • وأهم صفات هذا الشـــعور هى تحبيذ السلوك أو استنكاره (٢١) •

٤ ــ غـــاية الأخـــــلاق

غاية الأخلاق هى السعادة التى تظلل الفرد وتظلل الأمة • وهذه السعادة لا نجدها الا فى النظام الأخلاقى الاسلامى • وفى هذه الحالة تكون سعادة محققة لا أوهاما ملفقة ، وسعادة ماثلة لا أطيافا زائلة ، وســـعادة تجعل الحياة الدنيا جنة صـــغيرة يجتازها الناس الى الحياة الآخرة ، وهى الجنة الكبيرة التى ينعمون فيها بمـــا لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر على قلب بشر •

فعندما ندرس الاسلام من جميع جوانبه نجد أن نظامه قد وضع لمصلحة الانسان وسعادته ، لا فى الحياة الدنيا فقط بل فى الحياة الآخرة أيضا ، كما نجد أيضا أن حقيقة السعادة فى هذه الحياة هى الشـــعور والاحساس الدائم للانسان بخيرية الذات وخيرية الحياة وخيرية المصير الذى ينتظـــــره •

واذا كان هدف الأخلاق فى الاسلام هو السعادة ، فان هذا لا يعنى أنه يقول بمذهب السعادة فى رأى الفلاسفة ، اذ مفهوم الســـعادة فى الاسلام مفهوم خاص • فالسعادة فى نظر الاســـلام تختلف من حيث الزمان والمكان ، ومن حياة الى أخرى ، حيث الســـعادة فى الحيــــاة

---

(٢١) سهير مختار : محاضرات فى الأخلاق ص ٢٠ ــ ٢٥ وقارن : د• فيصل بدير عون : دراســـات فى الفلســـفة الخلقية ص ٧ ــ ٢١ •

الدنيا تختلف عن سعادة الحياة الأخرى ، كما أن الاسـلام يستهدف تحقيق السعادة فى الحياة الآخرة أكثر مما يستهدفها فى الحياة الدنيا ، ويضاف الى هذا ـ أيضا ـ أن السعادة التى أرادها الاسلام لا تقتصر على جانب واحد فقط ، وانما تشمل الجوانب الروحيـة والعقليـة والنفسية والمادية فى الانسان • وبطبيعة الحال كلما كان هناك اتساق بين هذه الجوانب كلما زاد نطاق السعادة كما وكيفا •

غير أنه يجب أن نلفت النظر الى أن الأخلاق فى نظر الاسلام ، وان كانت ترمى الى تحقيق السعادة للانسان ، فان هذا الهدف هـدف الأخلاق ، لا هدف الذات الفاعلة ، فان هدف الذات ينبغى ألا ينحصر فى تحقيق الانسان السعادة لنفسه أو لغيره ، وانما ينبغى أن يكـون هدفه الأول هو الله وحده ، انه يجب أن يؤدى الأعمال الأخلاقية لأنه مأمور بها من قبل خالقه وأن يقصد بها وجهه لا وجه أحد ولا وجـه السعادة أو تحقيق السعادة •

هذا هو الهدف أو الغاية من الأخلاق نفسها ، أما عن الهدف من الدراسة الأخلاقية فاننا نجد وجهات نظر مختلفة تتعلق بموضوع هذه الدراسـة الأخـلاقية •

فهناك وجهة نظر تؤكد أن علم الأخلاق هو دراسة نظـرية صرفة تهدف الى فهم طبيعة الأخلاق دون أن يكون لها أى تأثير على سـلوك دارسـيها •

وتؤكد وجهة نظر ثانية على أن الهدف الأساسى من الأخلاق هو التأثير على سلوكنا الواقعى •

وتؤكد وجهة نظر ثالثة ، ويؤيدها أغلب المفكرين أنه بينما تكـون الأخلاق علما نظريا أساسا يهتم بكشف الحقيقة فى الأمور الأخـلاقية

فيجب أن يبقى فى مسار البحث الأخلاقى نقدا دائما للمعايير الأخلاقية الموجودة ، ولذلك يصبح علم الأخلاق موضوعا علميا برغم طبيعته (٢٢)

٥ ـ ضرورة الأخـلاق

اذا كانت الأخلاق ضرورية فى نظر المذاهب والفلسفات الأخرى فهى فى نظر الاسلام أكثر ضرورة وأهمية ، ولهذا فقد جعلها مناط الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة ، فهو يعاقب الناس بالهلاك فى الدنيا لفساد أخلاقهم « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا » (٢٣) ، « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » (٢٤) ، « ان الأبرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم » (٢٥) • بل ان الاسلام يخضع الأعمال العلمية للمبادىء الأخلاقية ، سواء كان ذلك فى مجال البحث أو فى مجال النشر لتوصيله للنـــاس •

لقد أهتم الاسلام بالأخلاق لأن الأخلاق أمر لابد منه لدوام الحياة الاجتماعيةوتقدمها من الناحيتين:المادية والعنوية، فالانسان ـدائماـ بحاجة ماسة الى نظام خلقى يحقق للانسان حاجته الاجتماعية ويقف أمام ميوله ونزعاته الشريرة ويوجهه الى استخدام قواه فى مجالات يعود نفعها على نفسه وعلى غيره بالخير •

ان الاسلام يدرك تمام الادراك ماذا يحدث لو أهملت المبـادىء الأخلاقية فى المجتمع وساد فيه الخيانة والغش والكذب والسرقة وسفك

---

(٢٢) وليام ليلى : المدخل الى علم الأخلاق ص ٣١٧ •
(٢٣) سورة يونس ١٣ •
(٢٤) سورة هـود ١١٧ •
(٢٥) سورة الانفطار ١٣ ـ ١٤ •

الدماء والتعدى على الحرمات والحقوق والفسق بكل أنواعه ، وتلاشت المعانى الانسانية فى علاقات الناس ، فلا محبة ولا مودة ولا نزاهة ولا تعاون ولا تراحم ولا اخلاص •

انه بلا شك سيكون مجتمعا لا يمكن للحياة أن تدوم فيه ، حيث ستكون جحيما لا يطاق ، وسيتحول الناس الى وحوش ضارية وسيشقون شقاء ليس بعده شقاء ، لأن الانسان بطبعه محتاج الى الغير ، وبطبعه ينزع الى التسلط والتجبر والتكبر والأنانية والانتقام ، فاذا نزع الى ذلك أهلك الحرث والنسل « واذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد » (٢٦) •

ان سيادة خلق مثل « العدالة » فى حياة المجتمع سوف يكون له آثاره العظيمة ، اذ سيؤدى الى سيادة الأمن والاستقرار والمحبة والمودة والنشاط العملى والفكرى ، الأمر الذى يؤدى بدوره الى ازدهار الحياة وتمدينها •

أما اذا كان الأمر بالعكس — والعياذ بالله — وانعدمت العدالة فسوف يؤدى هذا بالضرورة الى انتشار الرعب والحقد والاضطراب والتناحر وقلة الانتاج • وفى هذا يقول الماوردى فى القاعدة الثالثة من القواعد التى تصلح بها الدنيا : « وأما القاعدة الثالثة فهى عدل شامل يدعو الى الألفة ويبعث على الطاعة وتعمر به البلاد وتنمو به الأموال ويكثر معه النسل ويأمن به السلطان •• وليس شىء أسرع فى خراب الأرض ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور » (٢٧)

---

(٢٦) سورة البقرة ٢٠٥ •

(٢٧) أبو الحسن الماوردى: كتاب أدب الدنيا والدين ص١٣٠–١٣١

ان تلاشى وضياع العدالة وانتشار الظلم فى أى مجتمع يؤديان الى فساد الحياة وخراب العمران كما يرى ابن خلدون حيث يقـــول فى الفصل الذى جعل عنوانه : « فصل فى أن الظلم مؤذن بخـــراب العمران » : « اعلم أن العدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها واكتسابها ، لما يرونه حينئذ من أن غاياتها ومصيرها انتهابها من أيديهم . واذا ذهبت آمالهم فى اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعى فى ذلك . وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعى فى الاكتساب ... والعمران ووفوره ونفاق أسواقه انمـــا هو بالأعمال وسعى الناس فى المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين . فاذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أســواق العمران ، وانتقضت الأحوال ، وابذعر (تفرق) الناس فى الآفاق .. فى طلب الرزق .. فخف ساكن القطر ، وخلت دياره ، وخربت أمصاره، واختل باختلاله حال الدولة والسلطان .. ومن أشد الظلمات وأعظمها فى افساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حــق . وذلك أن الأعمال من قبيل المتمولات .. وأعظم من ذلك فى الظلم وافساد العمران والدولة التسلط على أموال النــــاس ، بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ، ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجـــه الغصب والاكراه فى الشراء والبيع .. ويؤول ذلك الى تلاشى الدولة وفســاد عمران المدينة . ويطرق هذا الخلل على التدريج ولا يشعر به .. وأمـا أخذها مجانا والعدوان على النـــاس فى أموالهم وحـــرمهم ودمـــائهم وأسرارهم وأعراضهم فهو يفضى الى الخلل والفساد دفعة ، وتنتقض الدولة سريعا بما ينشأ عنه من الهرج المفضى الى الانتقاض » (٢٨) .

فالأخلاق ضرورية لأنها تعمل على دوام الحيـــاة الاجتمـاعية وتماسكها ، ولأنها تعمل على تقدم وازدهار الحضارة من الناحية العلمية

(٢٨) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٥ ـ ٢٥٨ .

والعمرانية • وتمتاز الأخلاق الاسلامية بأنها تدفع الى التكامل فى البناء الاجتماعى الذى يقوم ارساء العلاقات الانسانية بين البشر على أساس الايمان والاخلاص ، وتدفع الى التكامل فى ميدان العمل والصناعة والمعرفة ، وكلا التكاملين ضرورة لابد منهما لايجاد حياة انسانية سعيدة •

ومن هنا فالأخلاق الاسلامية ضرورة ، لأننا نكون بها أرقى الأمم وأسعدها ، لأنها تدعو كل انسان الى أن يكون انسانا عاملا خيرا عالما فاضلا ، ولا تتقدم الأمم الا بذلك •

هذه هى ضرورة الأخلاق بصفة عامة والأخلاق الاسلامية بصفة خاصة ، فما هى ضرورة الدراسة الأخلاقية كعلم ؟

لا شك أننا نحتاج فى دنيانا الى عدة مبادىء رئيسية وأساسية ، لتنظيم علاقتنا بالله عز وجل وبالناس وبأنفسنا • ويلزم أن تكون هذه المبادىء متوافقة مع طبيعة الانسان وعقله وغير متعارضة مع مصلحة الجماعة أو الأعراف والتقاليد السائدة ، فضلا عن أنها غير متعارضة مع الدين ، كما أنها لابد أن تتناول كل جوانب حياتنا ، اذ هى مبادىء مقومة لنا ومنظمة لسلوكنا وصالحة لأن تكون مبادىء عامة وكلية • تلك المبادىء هى ما يضمه علم الأخلاق •

واذا كان فى وسع الانسان أن يستغنى طول حياته عن بعض مسائل العلم والمعرفة ، فلا تخطر له ببال أبدا ، بل ربما يستطيع الاستغناء عنها جميعا فترة طويلة أو قصيرة من الزمن ، غير أنه لن يستطيع انسان ما أن يخلى همه من المسألة الأخلاقية طرفة عين (٢٩) •

---

(٢٩) د• محمد عبد الله دراز : دراسات اسلامية ص ١٠٠ •

فعلم الأخلاق علم معيارى ، يضع المبادىء التى ينبغى أن يكون عليها السلوك الانسانى ، كما يضع المعايير الصحيحة لتقويم هذا السلوك فهو العلم الذى يعلمنا كيف نحترم ذواتنا ونحب غيرنا حبنا لذواتنا ومن ثم فلا غنى لانسان عنه فى أى مكان وزمان ، فهو قريب الصلة بالانسان بل انه أقرب العلوم اليه •

يقول « مالبرانش » : « لا يوجد علم له كثير اتصال بنا أكثر من الأخلاق ، ذلك بأنه هو الذى يعلمنا واجباتنا نحو الله والملك والأهل ، وجميع ما يحيط بنا بصفة عامة ، كما يعلمنا الطريق الذى يجب سلوكه لنكون سعداء سعادة خالدة ، ولهذا فكل الناس فى حاجة ماسة لتعلمه » (٣٠) •

فاذا كانت دراسة الأخلاق بصفة عامة ضرورية فان دراسة علم الأخلاق الاسلامى أكثر ضرورة • ذلك أن منبع الأخاق فى الاسلام ليس العقل أو القلب أو الفرد أو المجتمع وانما منبعه الله ووحيه كما جاء بذلك الدين الاسلامى الحنيف الذى نزل لينظم حياتنا ومعاملاتنا وعلاقتنا بأنفسنا وبالله وبغيرنا من الناس •

لقد جاء الاسلام بأسس ومعايير يتحتم علينا السير وفقا لها ، وهى ليست أسسا ومعايير وضعية أو نلفيقية ، وانما هى وحى يوحى على هيئة أوامر ونواه ومباحات ومحظورات وطاعات ومعاص ، فمن أطاع الله أثابه ومن عصاه عاقبه وجازاه •

واذا قارنا علم الأخلاق الاسلامى بالمذاهب المتعددة التى مر بها علم الأخلاق فاننا سوف نتبين مدى ضرورة علم الأخلاق الاسلامى ،

---

(٣٠) د• محمد يوسف موسى : تاريخ الأخلاق فى الاسلام ص ٢٣٧

اذ نجد المذاهب متخبطة ، فمذهب يدعو الى اللذة وآخر يدعو الى المنفعة وثالث يدعو الى الواجب ورابع يدعو الى المحافظة على الكيان البشرى ، وهكـذا •

وتمتاز الأخلاق الاسلامية بأنها واقعية عملية وليست مثاليـة كالاخلاق عند سقراط وأفلاطون ومن سار على نهجهما • كما أنهـا تؤكد حرية الانسان واختياره ومسئوليته عن فعله • وتتميز أيضـا بأنهـا ايجابية شاملة بعيدة عن الانحراف والغلو • وهى — أيضـا — صالحة لكـل زمـان ومكـان •

فالأخلاق الاسلامية تسمو فوق أى مذهب فلسفى أو اجتماعى أو سياسى أو أى مذهب وضعى مهما كان شعاره •

الفصل الثاني

أسـس الأخـلاق

١ ـ الالزام الخلقى

يعد « الالزام » حجر الزاوية فى الفلسفة الخلقية الحقة ، اذ بدون الالزام لن تكون هناك مسؤولية ، وبدون مسؤولية لا توجد عدالة ، وبدون عدالة تنتشر الفوضى ، وتسود الهمجية ، ويفسد النظام • فلا يمكن أن نتصور مبدأ أو قاعدة أخلاقية بدون الزام •

والالزام هو السلطة الآمرة والقوة القاهرة والضرورة التى يستشعرها كل فرد فيعمل ما ينبغى عمله دون قسر أو ارغام آخذا نفسه بما يمليه عليه القانون الأخلاقى •

١ ـ مصادر الالزام :

اختلف فلاسفة الاخلاق فى تحديد مصدر الالزام ، فمن قائل ان مصدر الالزام هو الجماعة ومن قائل انه الدين ، ومن قائل انه العقل ، ومن قائل انه الوجدان أو الحاسة الخلقية ، ومن قائل انه دافع المنفعة ، ومن قائل انه قوة الضغط الاجتماعى وقوة الجذب الانسانية المستمدة من العون الالهى •

أما عن مصدر الالزام فى الاسلام ، فاننا نجد الاسلام يعتبر الله ورسوله مصدر الالزام فى الدرجة الأولى • فالله خالق الانسان وواضع نظامه الاخلاقى ، والعالم بما توسوس به نفسه ، والمراقب له فى سلوكه وأعماله ، والرسول منفذ لوحى الله •

ثم تأتى سلطة الجماعة أو الاجماع فى الدرجة الثانية ، لأن الاسلام يعد المجتمع مسؤولا عن انحراف بعض أفراده • ومن أجل هذا فرض الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولهذا كانت الأمة الاسلامية خير أمة أخرجت للناس •

وقد اعتد الاسلام ـــ أيضا ـــ بالعقل والادراك كمصدر من مصادر الالزام الخلقى ، لأن العاقل يفعل الخير ولا يفعل الشر .

كما اعتد أيضا بالضمير الخلقى أو الحاسة الخلقية التى تميز بين ما هو جميل من السلوك وبين ما هو قبيح .

يضاف الى ذلك أن الاسلام يعتد ـــ أيضا ـــ بالدوافع النفعية كمصدر للالزام الخلقى . فالانسان بطبيعته يحب الخير والنفع لنفسه .

ومن هنا نعلم أن هناك مصادر متعددة للالزام الخلقى فى الاسلام، وان كانت كلها ترجع الى مصدر واحد وهو الله سبحانه وتعالى .

٢ ـــ خصـــائص الالزام الخلقى :

تميز الالزام الخلقى فى الاسلام بخصائص مهمة قد لا نجـــدها واضحة فى أى فلسفة أخلاقية أخرى بمثـــل هـــذا الوضـــوح الذى نجـــده فى الاســـــلام .

أ ـــ كون الفعـــل مستطاعا :

فالاسلام يراعى طاقة البشر فى الالزام الخلقى ، ومن ثم فلـــم يكلفهم بما هو فوق طاقتهم ، اذ « لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها »(١) « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » (٢) ، « فاتقوا الله ما استطعتم » (٣)

وهذا مبدأ تقتضيه الفطرة السليمة اذ لو كلف الانسان فوق طاقته

---

(١) سورة الطلاق ٧
(٢) سورة البقرة ٢٨٦ .
(٣) سورة التغابن ١٦

الكان فى ذلك ظلم له ، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا « ان الله لا يظلم الناس مثقال ذرة » (٤) •

ب ــ اليسر فى التطبيق العملى :

أما الخاصية الثانية للالزام الخلقى فى الاســلام فهى اليسر فى التطبيق العملى ورفع الحرج عن الناس •

فليست الأخلاق الاسلامية متمشية مع قدرات الناس واستطاعتهم فحسب بل انها أسهل مما يستطيعونه • يقول الله سبحانه : « يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر » (٥) ، « يريد الله أن يخفف عنكم »(٦) « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » (٧) •

جـ ــ مراعاة الحالات الطارئة :

فقد وضع الاسلام مخرجا للحالات التى يصعب فيهــا الالتزام الخلقى • وهذا المخرج يكون تارة باعفاء المكلفين اعفاء كامــلا ، وتارة أخرى يكون باعفائهم اعفاء جزئيا ، وتارة ثالثة يكون مجرد ارجاء الفعل، ورابعة يكون المخرج استبدال عمل يسير بآخر عسير •

غير أنه يلاحظ أن هذه الحالات الاستثنائية ضرورة فلا ينبغى أن تتخذ ذريعة للتهاون فى العمل الأخلاقى • كما أن الاسلام قد راعى فى هذه الاستثناءات الفروق الفردية بين الناس فى الظروف المختلفة • وهذا كله يدل على مرونة التشريع الاسلامى وأنه صالح لكل زمان ومكان •

---

(٤) سورة النساء ٤٠ •

(٥) سورة البقرة ١٨٥

(٦) سورة النساء ٢٨ •

(٧) سورة الحج ٧٨ •

د ـ التدرج فى تحديد الواجبات :

لقد رتب الاسلام الأعمال الخلقية الى ما هو لازم وما هو ألزم ، فألزمها فرض العين ثم فرض الكفاية ثم الواجب ثم السـنة المؤكدة، ثم السنة غير المؤكدة ثم النوافل وأخيرا الكماليات . كما رتب المحرمات أو الشرور الى كبائر وصغائر ومكروهات وخلاف الأولى . ثم قسـمها من ناحية أخرى من حيث الواجبات المحدودة وغير المحدودة والمؤقتـة وغير المؤقتة . وحدد مسافة بين الخير والشر لا هى خير ولا هى شر ، وهى المباحات ، وأحد طرفيها متصل بالخير والآخر متصل بالشر ، وأمر الناس بالاتجاه الى الخير والابتعاد عن الشر .

٢ ـ المسـؤولية الأخـلاقية

ان المسؤولية الخلقية تترتب على القـول بالالزام الخلقى ، اذ القول بالالزام ينتج عنه بالضرورة أمران :

الأول : هو أن هناك مسؤولية أخلاقية .

والأمر الثانى : أن هناك جزاء يترتب على هذه المسؤولية .

والمسؤولية تعنى أن يتحمل الانسان نتيجة أفعاله التى التزم بها أو قررها أو اختارها ، سواء أكانت هذه الأفعال ايجابية أو سلبية .

وهو فى هذا مسؤول أمام الله أولا ، ثم أمام ضميره والمجتمـع الذى يعيش فيه ثانيـا .

وأساس المسؤولية هو أن يكون الفرد أهلا للاضطلاع بمسؤولياته وأن يتحملها ملتزما بها . وهذا يعنى أن الفرد لابد أن يكون فاهما لطبيعة ذاته بصيرا بسلوكه وأهدافه مقدرا لنتيجة تصرفاته ، يعرف نفعها وضرها على النفس والغير فى العاجل والآجل ، كما يعنى هذا أيضا أن يكون

للفرد حرية الارادة والاختيار والتصرف فيما يختاره ، وأن يكون قادرا على القيام بمسؤولياته وأفعاله •

ومن هنا فالحيوان غير مسؤول عن تصرفاته ولا الأطفال الصغار لعدم توفر الشروط السابقة فيهم •

وتنقسم المسؤولية الى قسمين : مسؤولية فردية ، ومسؤولية اجتماعية •

أما المسؤولية الفردية فلها مجالان : مجال باطنى وآخر ظاهرى• والأول هو مسؤولية الارادة والتصميم والقصد ، اذ ليس من الضرورى أن يخرج الفعل الى حيز الوجود ليكون الانسان مسؤولا عنه لقول الله سبحانه : « وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله»(٩) فان ترك الفعل يعد فعلا أيضا • ولكن لا يدخل فى هذا حديث النفس وما ينطوى عليه من خطرات الخير ووساوس الشر • وأما المجال الثانى للمسؤولية فهو السلوك المحسوس ، كلاما كان أم فعلا ، لكن يلزم أن يكون ناشئا عن قصد واختيار لقول الرسول صلى الله عليه وسلم « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى » (١٠) •

فلا يدخل فى هذا السلوك الناتج عن اكراه أو اضطرار أو خطأ أو نسيان ، كما لا يدخل فيه أيضا سلوك النائم والصبى والمجنون حيث لا مسؤولية عليهم •

أما فيما يتعلق بالمسئولية عن سلوك الغير أو المسئولية الاجتماعية فاننا نجد أن الاسلام يؤكد أن الانسان مسئول عن نفسه وعن غيره • وما فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الا ترجمة للمسئولية الاجتماعية • وقد صور لنا الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المسئولية

---

(٩) سورة البقرة ٢٨٤ •

(١٠) رواه البخارى •

أبدع تصوير حين قال : « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا • وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » (١١) •

وهذه المسئولية أيا كانت ليست قاصرة على المسئولية فى هذه الحياة الدنيا وكفى من حيث الجزاء والمكافأة ، بل ان المسئولية الأصلية هى المسئولية فى الحياة الأخرى التى يجازى فيها الانسان على ما قدم بصورة عادلة ليس لها مثيل فى حياتنا الدنيا •

٣ ــ الجــزاء الأخلاقى

الجزاء الأخلاقى نتيجة طبيعية للمسئولية الأخلاقية • كما أنه لازم لتحقيق العدالة بين الناس ، اذ شتان بين انسان يسعى بين الناس بالفضيلة ، وانسان يؤذيهم بالرذيلة فلابد أن يلقى كل منهما جزاء فعله، واذا كان هناك جزاء لكل سلوك أخلاقى كان هناك تمسك بالأخلاق والفضائل •

وهناك أنواع متعددة من الجزاء ، نذكر منها :

١ ــ الجزاء الالهى :

فالله ــ سبحانه يجازى المستقيم بالثواب ، ويجازى المنحرف بالعقاب • ومجازاة الله للبشر دنيوية وأخروية ، وقد تقل وقد تكثر •

٢ ــ الجزاء الوجدانى :

وهو ما نحس به من مشاعر بعد أى سلوك • فنحن نشعر بالفرح

---

(١١) رواه البخارى •

والسرور بعد الفعل الخير ، ونشعر بالحزن والتأنيب بعد الفعل السيء أو الشرير • وهذا الاحساس أو لشعور الذى يتحرك فى نفوسنا يختلف من شخص الى آخر بطبيعة الحال •

هذا الاحساس الذى هو الوجدان أو الضمير قد يكـــون له من التأثير ما ليس للجزاء المادى ، فان الجزاء المادى قد لا يكون مصيبا أما الجزاء الوجدانى فانه مصيب ومستمر دائما •

٣ ـ الجـزاء الطبيعى :

فالذى يخرج على النظام الأخلاقى سوف ينال جزاء طبيعيـا • وهذا الجزاء قد يرجع الى القوانين الطبيعيـة كالاصـابة بالأمراض السرية بسبب ارتكاب جريمة الزنا ، وقد يرجع الى قوانين الطبيعـة الاجتماعية فاذا تفشت جريمة القتل زال الأمن والطمأنينة ، بل زالت الحيـــاة •

٤ ـ الجـزاء القـــانونى :

وهو العقوبة التى تحل بصاحب الخلق السيىء • والنظام العقابى فى الجزاء الاسلامى يضم نوعين من الجزاءات هما :

أ ـ الحدود : وهى الجزاءات التى حددها الشرع بدقة وصراحة •

ب ـ التعزيرات : وهى متروكة لتقدير القضاة •

٥ ـ الجزاء الاجتماعى الأدبى :

ويقصـد بهذا الجزاء الأدبى عدم الاعتداء بشـخصية الفاسـق أو الشرير وعدم الثقة به ، ومن هنا لا تقبل شهادته ، ولا يجد الاحترام والقبول من الناس ، وهذا أمر بالغ الصعوبة على النفس الانسانية • يقول صلى الله عليه وسلم : « أنزلوا الناس منازلهم من الخير والشر »(٨)

---

(٨) اسماعيل العجلونى : كشف الخفاء ومزيل الالباس جـ ١ ص ٢٤٩

هذا ومن الجدير بالذكر هنا أن نقول ان الاسلام ربط الأخلاق بالجزاء سواء كان عاجلا أو آجلا بشكل حاسم • وهو فى ربطه هـذا قد راعى الطبيعة الانسانية من حيث ماديتها ومعنويتها فجعل الجـزاء كذلك ماديا ومعنويا • كما ربط الاسلام ـ أيضا ـ مصير الانسان فى الدنيا والآخرة بالعمل الأخلاقى ، فصاحب الأخلاق الطيبة يسـعد فى الدارين وصاحب الأخلاق الرديئة يشقى كذلك فى الدارين •

وبهذا تتميز الأخلاق الاسلامية من المذاهب الأخلاقية الأخرى ، شرقية كانت أو غربية ، دينية كانت أو وضعية •

٤ ـ النيـة والدافـع

هى أحد الأسس الأخلاقية المهمة فى الأخلاق الاسلامية • والنية تعنى اتجاه الانسان بقلبه الى اختيار أمر ما والمضى فى تنفيذه بعـزم ثابت لا يمنعه من التنفيذ الا أمر عائق خارج عن ارادته •

وهى معيار لتحديد قيمة العمل والحكم عليه بالخير أو الشر • فمن قصد بعمله وجه الله كان العمل خيرا واستحق صاحبه الثواب ، ومن كانت نيته لغير الله أو كانت نيته شرا كان شريرا واستحق الذم والعقاب •

أما اذا كان العمل عملا عاديا لا يستحق تقويمه بمعيار الخـير والشر فلا حكم له الا بحسب النية ، فالذى يجعله خيرا أو شرا انمـا هو القصـد والنيـة •

وبهذا المعنى ينقسم السلوك الارادى فى الاسلام الى ما هو طاعة ، والى ما هو معصية والى ما هومباح •

أما الطاعة فهى مرتبطة بالنية فى أصل صحتها ، لأن النية شرط لصحة أداء الواجبات الدينية التى لا تكون كاملة الا اذا قصد بهـا

الانسان وجه الله وكانت خالصة له دون غيره ، وهذه هى مرتبة الاخلاص وغاية الكمال الأخـلاقى •

فالنية هى روح الفعل فاذا تجرد منها كان ميتا كما يقول ابن تيمية رحمه الله • والواجبات اذا خلت من النية المقصود بها وجه الله كانت رياء ونفاقا وجسدا ميتا لا روح فيه ولا وزن أو قيمة له •

وعلى العكس من ذلك فان الخير يتضاعف اذا تعددت نيـات الخير فى أداء الواجب الأخلاقى •

وأما المعاصى فلا أثر للنية الحسنة فى تغيير حكمها • فالذى يسرق ليتصدق لا يعد عمله عملا خيرا ولا أثر للنية الطيبة هنا ، فلا تجعـل العمل خيرا ، فهو معصية ، بل ان القبح هنا يعد آمرا جسيما لاتخـاذ الشر وسيلة للخير مع أن الاسلام يحرص على نقاء الوسيلة والغاية فى كل سـلوك •

وفيما يتعلق بالمباحات وهى كل ما لم يرد فيـه أمر ولا نهى من الشرع ، فان وجدت فيها النية أخذت حكم النية فيها • فان فعلهـا الانسان بنية طيبة مراعيا لوجه الله فيها كانت أفعالا خلقية وطـاعات يثاب عليها • فالمباحات يمكن أن تكون طاعة أو معصـية بحسب النية •

تلك هى النية وعلاقاتها بالسلوك الارادى فى الاسلام ، ويكفى أن نعلم أن مدار الأعمال كلها فى الاسلام يقوم على هذه النية •

غير أننا يجب أن نلاحظ أن تقسيم السلوك الى طاعة ومعصيةومباح أمر سهل من الناحية النظرية أما الواقع فالأمور فيه متداخلة ومعقدة ، فقد تختلط البواعث على الفعل فلا نستطيع تحديد الباعث الأصـلى على هذا السلوك أو ذاك بمعنى أننا لا نستطيع الجزم بأن باعثا منفردا يكون كافيا فى دفع الانسان الى عمل ما • فمن العسير على من يقـدم

عونا لمحتاج أن يعرف على وجه التحديد ما اذا كان باعثه على الفعل أمرا شخصيا أو انسانيا أو دينيا أو هو يجمع كل هذه البواعث •

ان هذا أمر يتوقف عليه بيان ما فى نفوسنا من خير أخلاقى أو زيف أو رياء • ومن هنا فنحن بحاجة الى معيار نختبر به بواعثنا ، ونميز به ما هو شخصى وما هو أخلاقى منها •

وقد وضع الامام الغزالى مقياسا يختبر به الانسان سريرته وبواعثه ليتعرف حقيقتها • فقد رأى أن على الفرد الذى يتنازع ارادته باعث الأخلاق وباعث المصلحة ويختلط عليه الأمر فى تحديد المحرك الأصلى فى دفعه الى العمل عليه أن يختبر أثر كل باعث على حدة وكأنه الباعث الوحيد على الفعل ثم يحلل علاقته بالباعث الآخر ، وأن يقيس شدة باعثه الأخلاقى بالنسبة للباعث الآخر ، فاذا تساوى الباعثان كان العمل محايدا لا يوصف بالأخلاقية أو عدمها ، وان رجحت كفة الباعث الأخلاقى كان فى الفعل من الأخلاق بقدر شدة باعثه ، واذا رجحت كفة الباعث الشخصى فقد الفعل قيمته الأخلاقية •

٥ ــ هل القيم الخلقية تتطور ؟

يحلو لكثير من الناس أن يتحدث عن التقدم والتطور والحداثة والمعاصرة ، والبعض من هؤلاء يريد فعلا أن ننطلق فى هذا من واقع حياتنا وتراثنا وقيمنا الاسلامية الأصيلة • والبعض الآخر يريد فقط أن ننسلخ عن هذه القيم وهذا التراث ونقبل القيم العلمانية الغربية المادية فى أساسها •

ويجب علينا أن نفهم هنا ما المقصود بالتطور ، وهل القيم الخلقية نسبية متطورة ؟

مفهـــوم التطـــور :

مصطلح التطور جديد فى اللغة العربية ، وهو مشتق من كلمـــة « طور » التى تعنى الحال والضرب والتارة والخلق المختلفة ، والتدرج والتنوع والتناسق والحد والغاية والانتقال من شىء الى شىء آخر ، والظهور التدريجى . ومن الناحية الاصطلاحية فهو يعنى شيئين : نظرة شاملة للكون فى تدرجه وترتيب ظهوره ، وأن الكائنات الحية نشـــأت من أصل واحد أو عدة أصول نشوءا تدريجيا متغيرا مستمرا ، وهى تبدأ من البسيط الى المركب ، ومن الأدنى الى الأعلى ، بغية الوصـــول الى الكمال (١٢) . أو بعبارة أخرى هناك تطور كونى عام ، وهناك تطـــور عضوى يتعلق بالكائنات الحية .

فالتطور يشمل الحياة النباتية والحيوانية والانسانية ، والمجتمع الانســـانى وتركيبه ، والعـــلاقات الاجتماعية ، والنظم السياســـية والاقتصادية والتربوية وغير ذلك ، كما يشمل القيم الخلقية والمبادىء التشريعية ، وكذلك الوسائل المادية والفنية من أدوات وآلات وغيرها .

وفكرة التطور تنسب عادة الى (تشارلز داروين ـــ ١٨٠٩ ـــ ١٨٨٢) غير أن الواقع أنها قديمة جدا ، فقد أخذها اليونان عن قدماء المصريين.

والحق أنه لم يسلم بهذه الفكرة كثير من العلماء حتى انها لم تزد على كونها فرضا من الفروض فى نظرهم ، وقد وجهت اليها انتقادات كثيرة من علماء التطور أنفسهم ومن المفكرين ومن المتدينين (١٣) .

---

(١٢) د. محفوظ عزام : نظرية التطـور عند مفكرى الاســلام ـــ دراسة مقارنة ص ١٩ .

(١٣) لمعرفة هذا يرجـع الى كتابنا « نظـرية التطـور عند مفكرى الاسلام » السابق الذكر .

على كل حال نتج عن القول بالتطور فى الكائنات الحية القـــول بتطور القيم الخلقية ، بمعنى أن القيم الخلقية متغيرة متبدلة ويكـــون معيارها هو الشهوة أو الهوى ورغبات الانسان •

وقد دعا الى التطور فى الشرق بعض الباحثين على خلاف بينهم فى مقدار الخروج عن اطار الاسلام • وقد تصدى لهؤلاء كثير من الغيورين على دينهم وعقيدتهم وقيمهم •

فمن الذين دعوا الى التطور الشامل هادفين الى هدم الاســلام عقيدة وشريعة وأخلاقا : شبلى شميل ، وقابيل آدم ، وسلامة موسى ، واسماعيل مظهر ، وسير سيد أحمد خان والشيوعيون جميعا ، والغالبية الساحقة من المشتغلين بعلم الاجتماع •

ومن الذين تصدوا لمواجهة هذه الفكرة : جمال الدين الأفغـــانى والشيخ محمد رضا آل العلامة التقى الأصفهانى • وأبو الأعلى المورودى ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا وسيد قطب وغير هؤلاء •

أما وجهة التطور فى القيم الخلقية عند من نادى بها فانها تعنى شيئا واحدا هو اتخاذ القيم الخلقية الأوربية وتبنيها وهجــر القيــم الاسلامية التى تتعارض معها •

ومن المعروف أن القيم الأخلاقية الأوربية الحديثة والغربية بصفة عامة انما تقوم على الأنانية والمنفعة المــادية الحسية • وفى ذلك طمس للقيم الخلقية الاسلامية وتعطيل للشريعة الاسلامية ومحو لمعـــالم الشــخصية الاســلامية •

ان الاسلام ليس ثابتا على طول الخط وليس متطورا أيضا على طول الخط ، وانما فيه ثوابت ومتغيرات • والثوابت لا مجــال فيهــا التطور ، والمتغيرات هى محل التطور بحسب الزمان والمكان •

ان التطور فى الاسلام يعنى حل المشـكلات الحياتية والاجتماعية والثقافية والسياسية التى تواجهها الأمة دون خروج على النصـوص الدينية أو التعسف فى تأويلها ، ودون نظر الى موافقة أو عدم موافقة التطورات التى أحدثتها أية أمة أخرى .

والقيم الخلقية الثابتة هى القيم الخلقية المستندة الى نصـوص قطعية . وما لا يستند الى نصوص قطعية فهو محل تغير وتطـور ، بشرط ألا يتعارض مع ما هو ثابت . ومعنى هذا أن كل القيم الخلقية ثابتة ، لأنها داخلة تحت أحكام الشرع ، ومادامت ثابتة فانها لا تتغـير ولا تتبدل بتبدل الأزمان والأماكن والآراء . ودعاوى تطويرها أو تبديلها أو هجرها كلها دعاوى باطلة تهدف الى هدم القيم نفسها .

فالعدل والرحمة والتواضع والعفة وغيرها من القيم الخلقية ثابتة لا تتغـير ولا تتبـدل .

الباب الثانى

الأخـــلاق العمليـــة

الفصل الأول : من الأخلاق الفاضلة

الفصل الثانى : من الأخلاق غير الفاضلة

الفصل الأول

من الأخلاق الفاضلة

١ ــ أداء الأمــانة

اداء الأمانة خلق اسلامى يعنى أن المسلم يتحمل المسئولية فى كل عمل يؤديه سواء كان هذا العمل متعلقا بالله أو بالناس •

وقد أمر الاسلام أن نؤدى الأمانات الى أهلها حيث يقول جــل شأنه : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » (١) •

فالأمانات ــ اذن ــ تشمل أداء حقوق الله وحقــــوق النــاس والكائنات الأخرى • أما حقوق الله فهى أن نؤمن به ربا واحدا ، وأن نعبده وحده ، وأن نعمل وفق كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم • وأما حقوق الناس والكائنات الأخرى ، وهى فى حقيقتها تعد أداء لحقوق الله ، فتشمل دوائر الأسرة والمجتمع المسلم ، والمجتمع الانسانى بأسره، والبيئة الطبيعية بما تشتمل عليه من حيوان ونبات •

ونبدأ أولا ببيان حقوق الناس أيا كانوا ، أى حقوق الانسان، سواء كان هذا الانسان مسلما و غير مسلم ، قريبا أو غير قريب ، شرقيا أو غربيا • ثم نتحدث بعد ذلك عن حقوق الطبيعة وحقوق الحيوان •

ومما يجدر الاشارة اليه أن الحديث عن الحقوق يعنى الحديث عن الواجبات أيضا لأن ما هو حق لانسان هو واجب على آخــر ، أى أن ما هو حق من ناحية هو واجب من ناحية أخرى •

(أ) أما حقوق الانسان فنوجزها فيما يلى :

١ ــ حق الانســان فى أن يحيــا :

الحق الأول من حقوق الانسان هو حق الحياة الذى أقره الاسلام

---

(١) سورة النساء ٥٨ •

منذ أربعة عشر قرنا أو يزيد ، أى قبل أن يولد اعلان « الأمم المتحدة » عن « حقوق الانسان » بألف وأربعمائة عام الا قليلا .

واذا كان هذا الحق قد جاء موجزا فى المادة الثالثة من اعلان « حقوق الانسان » فان الاسلام قد فضله وجعله حقا مقدسا فلا يجوز لأحد أن يعتدى على حياة أحد أو المساس بها بأى شكل من الأشكال . فقد قال تعالى : « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » (٢) .

وهذا الحق لا يسلب من الانسان الا بالاجراءات التى يقررها الشرع الاسلامى ونظامه .

فالقيمة الانسانية لها احترامها فى الاسلام ، فهو يحميها فى الحياة وفى الممات . اذ من حق الانسان اذا توفى أن نترفق بجثمانه ونكرمه لقول لنبى صلى الله عليه وسلم : « اذا كفن أحدكم أخاه فليحسن كفنه » (٣) . بل يجب أن تستر عيوبه الشخصية وسوءاته فلا نطلع أحدا عليها بلعن أو سب للميت لقوله عليه السلام : « لاتسبوا الأموات فانهم أفضوا الى ما قدموا » (٤) . فمن حق الانسان الميت أن يحترم أيضا فلا يفضح بذكر عيوبه وسوءاته .

٢ ــ حق الانسان فى أن يعيش حرا :

فاذا كان الاسلام يقدس حياة الانسان ، فانه أيضا يقدس حريته سواء بسواء . اذ الحرية فى الاسلام صفة طبيعية للانسان يولد بها

---

(٢) سورة المائدة ٣٢ .

(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

(٤) رواه البخارى .

وتظل الى أن يموت عليها • فما من مولود الا ويولد على الفطـرة التى خلقه الله عليها •

ومن هنا فلا يجوز لانسـان أن يعتدى على حرية انسـان آخر ، مادام قد ولد بهذه الصفة الطبيعية • ولهذا قال عمر رضى الله عنه قولته الشهيرة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » (٥) •

فاذا كان الأمر كذلك فانه يجب توفير الحمـاية لحرية الانسـان فلا يجوز أن تقيد أو يحد منها الا بحسب ما يقتضيه الشرع الذى نزل أصلا لمصلحة الانسان •

لقد سبق الاسلام بهذا « الاعلان العالمى عن حقوق الانسان» الذى جاء فى المـادة الأولى منـه « يولد الناس جميعا أحرارا متسـاوين فى الكرامة والحقوق » ، وجاء فى المـادة الثالثة : « لكل انسـان الحق فى الحياة والحرية » (٦) •

واذا كان الاسلام يمنع أن يعتدى انسان على حرية انسان آخر ، فانه فى الوقت نفسه يمنع أن يعتدى شعب على حرية شعب آخر،أو أن تعتدى أمة على أمة أو دولة على دولة،فاذا حدث هذا فللمتعدى عليه أن يقاوم هذا العدوان وأن يسترد حريته بما يستطيع من وسائل وامكانات وعدة وعتاد « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل»(٧)•وعلى المجتمع الانسانى أن يساند من يجاهد فى سبيل حريته ، وعلى المسلمين

---

(٥) قالها عمر بن الخطاب عنـدما شـكا اليه واحد من رعايا مصر لظلم وقع عليه من ابن والى مصر •

(٦) أقر الاعلان العالمى لحقوق الانسان فى العاشر من ديسمبر ١٩٤٨.

(٧) سورة الشورى ٤١ •

واجب لا يمكن أن يتخلوا عنه ، فهم خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتنشر السلام والأمن والحرية فى ربوع العالم بأسره •

٣ ــ حق الناس فى المساواة

مادام الناس جميعا يرجعون الى أصل واحد فلابد أن يكونوا متساوين فى القيمة الانسانية • فالجميع يرجع الى آدم ، وآدم يرجع أصله الى التراب « كلكم لآدم وآدم من تراب » (٨) •

وميزان التفاضل بين الناس انما يكون بحسب الأعمال التى يؤديها كل منهم « ولكل درجات مما عملوا » (٩) ، ويكون بحسب التقوى «ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (١٠) •

فاذا كان الناس متساوين فى القيمة الانسانية فلا يجوز أن يتعرض انسان لخطر أو ضرر بأكثر مما يتعرض له غيره من الناس ، حيث « المسلمون تتكافأ دماؤهم » (١١) • ومن ثم فليس هناك مسوغ للتفريق بين الناس على أساس اللون أو الجنس أو العرق أو اللغة أو الدين • وأى تفرقة من هذا النوع تكون منافية وهادمة لمبدأ المساواة فى الاسلام•

واذا كان الناس أمام الاسلام متساوين فى القيمة الانسانية فلابد أن يكونوا متساوين فى تطبيق شرع الله عليهم ، لا يستثنى من ذلك أحد

---

(٨) هذه العبارة من خطبة للرسول صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع •

(٩) سورة الأحقاف ١٩ •

(١٠) سورة الحجرات ١٣

(١١) رواه أحمد فى مسنده •

مهما يكن منصـــبه أو جاهه أو غناه أو شرفه « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » (١٢) فالشريعة تحمى صاحب الجاه والســـلطان والمحروم منهما ، وتحمى القوى والضعيف سواء بسواء ، لأنها تحترم الانسان ، مهما يكن هذا الانسان « ألا ان أضعفكم عندى القوى آخذ الحق منه ، وأقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له » (١٣) .

ومادام الناس متســـاوين فى القيمة الانســـانية ، وأمام تطبيق الشريعة عليهم دون استثناء وحمايتها لهم ، فيلزم أن يكونوا متساوين فى حق الانتفاع بالموارد المـــادية للمجتمع من خلال فرص عمل متكافئة فلكل انسان أن يأخذ فرصته فى العمل كما يأخذ غيره فرصته ، ولا سيما أن موارد الرزق قد أتاحها الله للجميـــع بقوله : « فامشـــوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » (١٤) .

واذا كان الجهد المبذول واحدا ، والعمل المؤدى واحدا من حيث الكم والكيف ، فانه لا يجوز التفرقة فى الأجر بين انسان وآخر « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمـــل مثقال ذرة شرا يره » (١٥) . ومن هنا فلا معنى اطلاقا لأن يأخذ انسان أجرا أكبر من أجر انسان آخر يعمل نفس العمل ، كما يحدث فى بعض الدول الاسلامية .

هذا هو حق المســـاواة الذى سبق به الاســـلام « اعلان حقوق الانسان » والذى جاء فيه : « يحق لكل فرد أن يستمتع بجميع الحقوق والحريات المنصوص عليها فى هذا الاعلان دون تفرقة أو تمييز من أى

---

(١٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

(١٣) من خطبة للخليفة الأول عند تولية الخلافة .

(١٤) سورة الملك ١٥ .

(١٥) سورة الزلزلة ٧ ـ ٨ .

نوع ، كالتمييز بسبب السلالة أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين او الرأى السياسى أو غيره من الآراء أو الأصل القومى او الاجتماعى أو الثروة أو المولد أو غير ذلك من الأوضاع » (١٦) .

٤ — حق الانسان فى العدالة :

العدل صفة خلقية تنعكس فى كل نواحى حياة المؤمنين المتقين النفسية والاجتماعية والسياسية .

فالمسلم عادل مع نفسه ، فهو لا يظلمها بالانحراف عن شرع الله وتعدى حدوده « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » (١٧) .
وقد أمر الله المؤمنين بالتزام العدل فى الأقوال والأفعال والأحكام وألا يثنيهم عن ذلك صلات القرابة والمودة ، ولا مشاعر الكراهية والعداوة « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » (١٨) .

فالعدل فى الاسلام مبدأ خلقى مطلق ، يطبق على كل الناس ، وفى جميع الظروف والأحوال . وليس العدل فى الاسلام — كما هو فى المجتمعات العنصرية والطبقية — ميزة يحتكر التمتع بها أفراد الجنس الأبيض أو طبقات الأغنياء (١٩) .

فمن حق كل انسان أن يتحاكم الى الشريعة ، وأن يحاكم اليها

---

(١٦) المادة ٢ البند « أ » .
(١٧) سورة الطلاق ١ (١٨) سورة المائدة ٨ .
(١٩) د. أحمد عبد الحميد غراب : الشخصية الانسانية فى ضوء القرآن الكريم ص ٨٩ .

دون سواها « فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول » (٢٠) •
« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم » (٢١) •

كما أن من حق كل انسان أن يدفع عن نفسه ما يلحقه من ظلم : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم » (٢٢) ومن واجبه أن يدفع الظلم عن غيره بما يملك من وسائل : « لينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوما : ان كان ظالما فلينهه ، وان كان مظلومه فلينصره » (٢٣) • ومن حق الانسان أن يلجأ الى سلطة شرعية تحميه وتنصفه ، وتدفع عنه ما لحقه من ضرر أو ظلم ، وعلى الحاكم المسلم أن يقيم هذه السلطة ويوفر لها الضمانات الكفيلة بحيدتها واستقلالها • فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « انما الامام جنة يقاتل من ورائه ، ويحتمى به » (٢٤) •

يضاف الى ذلك أن من حق الانسان ، بل ومن واجبه ، أن يدافع عن الآخرين احتسابا لوجه الله ، ومن غير أن يطلب منه ذلك « الا أخبركم بخير الشهداء ؟ الذى يأتى بشهادته قبل أن يسألها » (٢٥) •

وحق الانسان فى الدفاع عن نفسه لا تجوز مصادرته تحت أى مسوغ كان ولا بأى وجه من الوجوه « ان لصاحب الحق مقالا » (٢٦) ، « اذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر ، كما سمعت من الأول ، فانه أحرى أن يتبين لك القضاء » (٢٧) •

---

(٢٠) سورة النساء ٥٩ •
(٢١) سورة المائدة ٤٩ •
(٢٢) سورة النساء ١٤٨ •
(٢٣) رواه الشيخان والترمذى • (٢٤) متفق عليه •
(٢٥) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى •
(٢٦) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى •
(٢٧) رواه أبو داود والترمذى •

وليس لانسان أن يلزم مسلما بأن يطيع أمرا يخالف الشريعة ، لأنه « اذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » (٢٨) ومن حق من يقول « لا » فى وجه من يأمر بمعصية أن يحمى المجتمع رفضه تضامنا مع الحق ، لأن « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » (٢٩) .

هذا هو حق العدالة الذى قرره الاسلام وأكده وحرص عليه . وقد عبر « الاعلان العالمى لحقوق الانسان » عن هذاالحق فى المادة السابعة والمادة الثامنة فقد جاء فيهما : « كل الناس سواء أمام القانون ، ومن حقهم جميعا أن يحميهم القانون دون تمييز بينهم وكل منهم ذو حق متساو فى أن يحميه القانون من أى تمييز » ، « لكل انسان الحق فى الالتجاء الى المحاكم الوطنية المختصة لتدفع عنه أى عدوان على حقوقه الأساسية » .

ويتصل بهذا الحق حق الفرد فى أن يحاكم محاكمة عادلة . وفى هذا المجال يعتبر الاسلام أن براءة الانسان هى الأصل ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « كل أمتى معافى الا المجاهرين » (٣٠) .

وهذه البراءة لا تنتفى عن الانسان المتهم حتى تثبت ادانته ادانة نهائية ، أمام محكمة عادلة .

ولا يعد الانسان مجرما الا بنص شرعى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (٣١) . وليس لمسلم أن يعتذر بالجهل لما هو معلوم من الدين بالضرورة ، غير أنه ينظر الى جهله — اذا ثبت — على أنه شبهة تدرأ بها الحدود فقط « ولا جناح عليكم فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم » (٣٢) . ولا يحكم بتجريم انسان ، ولا يعاقب

(٢٨) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .
(٢٩) رواه البخارى (٣٠) متفق عليه .
(٣١) سورة الاسراء ١٥ (٣٢) سورة الأحزاب ٥ .

على جرم الا بعد ثبوت ارتكابه لهذا الجرم بأدلة صحيحة وأمام محكمة لها طبيعة قضائية كاملة « ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » (٣٣)• « وان الظن لا يغنى من الحق شيئا » (٣٤) • وعند تطبيق العقوبة على من أجرم فانه لا يجوز مطلقا تجاوز العقوبة المقررة شرعا « تلك حدود الله فلا تعتدوها » (٣٥) • وقد حرصت الشريعة الاسلامية على مراعاة الظروف والملابسات التى حدثت فيها الجريمة درءا للحدود ، فقد قال عليه السلام : « ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ، فان كان له مخرج فخلوا سبيله » (٣٦) • كما حرصت على أن لا يؤخذ انسان بجريرة غيره « و لاتزر وزرة وزر أخرى » (٣٧) • فكل انسان فى الاسلام مسئول عن أفعاله مسئولية كاملة ، ومستقل فى هذا استقلالا كاملا « كل امرىء بما كسب رهين » (٣٨) • ومن هنا فلا يجوز مطلقا أن تمتد المساءلة الى أهله وذويه أو غيرهم « معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده انا اذا لظالمون » (٣٩) •

وقد عبر « الاعلان العالمى » عن هذا الحق فى المادتين : العاشرة والحادية عشرة ، حيث جاء فيهما :

« لجميع الأفراد على السواء الحق فى محاكمة عادلة علنية أمام محكمة مستقلة محايدة تقرر حقوق الفرد وواجباته وتفصل فى أية تهمة جنائية توجه اليه » •

« كل متهم بجريمة له الحق فى أن يعتبر بريئا حتى تثبت ادانته

---

(٣٣) سورة الحجرات ٦
(٣٤) سورة النجم ٢٨ •
(٣٥) سورة البقرة ٢٢٩
(٣٦) رواه البيهقى والحاكم •
(٣٧) سورة الاسراء ١٥
(٣٨) سورة الطور ٢١ •
(٣٩) سورة يوسف ٧٩ •

قانونا بمحاكمة علنية تتوافر فيها كافة الضمانات التى تكفل له الدفاع عن نفسه » .

لا يجوز اعتبار أى انسان مذنبا بسبب ارتكابه فعلا أو بسبب اهمال لم يعده قانون العقوبات الأهلى أو الدولى جريمة وقت ارتكابه. كذلك لا يجوز أن توقع عليه عقوبة أشد من العقوبة التى كانت تطبق وقت ارتكابه هذا الجرم » .

كما نصت المادة التاسعة على أنه « لا يجوز القبض على انسان أو حبسه أو ابعاده بغير مسوغ قانونى » .

٥ ـ حق الحماية من التعسف والتعذيب :

لقد كفل الاسلام لكل انسان حقه فى حمايته من تعسف السلطان معه بأى وجه من الوجوه . فلا يجوز أن يطالب انسان بتقديم تفسير لعمل من أعماله ، أو وضع من أوضاعه ، ولا توجيه اتهام له الا بناء على قرائن قوية تدل على تورطه فيما يوجه اليه من تهم « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا » (٤٠) .

كما كفل الاسلام لكل انسان حقه فى الحماية من التعذيب فلا يجوز تعذيب المجرم فضلا عن المتهم « ان الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا » (٤١) . ولا يجوز ـ أيضا ـ حمل الانسان على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها ، وكل اعتراف ينتزع بوسائل الاكراه فهو باطل « ان الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » (٤٢) . ومهما كانت جريمة الانسان ، ومهما تكن عقوبتها التى

---

(٤٠) سورة الأحزاب ٥٨ .
(٤١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .
(٤٢) رواه ابن ماجه .

قررها الشرع فان انسانية الانسان وكرامته الانسانية تظل مصونة ومحترمة .

وهذا ما عبرت عنه المادة الخامسة من « الاعلان العالمى » حيث تنص على أنه « لا يجوز تعريض أى انسان للتعذيب ولا لضروب من المعاملة أو العقوبة القاسية المهينة المنافية للكرامة الانسانية » .

٦ ــ حق الانسان فى حماية عرضه وسمعته :

لقد حرم الاسلام أن تنتهك سمعة الانسان وعرضه ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » (٤٣) . كما حرم تتبع عورات الانسان ومحاولة النيل من شخصيته المعنوية « ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا » (٤٤) ، « ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب » (٤٥) .

وهذا الحق نصت عليه المادة الثانية عشرة من الاعلان العالمى فقالت انه « لا يجوز تعريض انسان للتدخل فى شئونه الخاصة ولا فى شئون أسرته أو مسكنه ، أو رسائله بغير مسوغ قانونى ، ولا للاعتداء على شرفه وسمعته ، ولكل انسان الحق فى الاحتماء بالقانون من مثل هذا التدخل أو الاعتداء » .

٧ ــ حق اللجوء :

وهذا الحق كفله الاسلام لكل مظلوم أو مضطهد ، سواء كان مسلما أو غير مسلم ، أو أبيض أو اسود ، شرقيا او غربيا « وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه

---

(٤٣) من خطبة النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع .

(٤٤) سورة الحجرات ١٢ . (٤٥) سورة الحجرات ١١ .

مأمنه » (٤٦) • فللمظلوم أو المضطهد أن يلجأ الى حيث يأمن فى نطاق دار الاسلام • وبيت الله الحرام بمكة المكرمة جعله الله مثابة للنـــاس وأمنا فلا يصد عنه مسلم أبدا « ومن دخله كان آمنا » (٤٧) ، « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » (٤٨) •

وهذا ما عبر عنه « الاعلام العالمى » بقوله : « لكل انسان الحق فى أن يلتمس فى غـــير وطنـــه ملجـــأ يفيـــد منه ويلوذ به من الاضــــطهاد » (٤٩) •

٨ ــ حقـــوق الأقليـــة :

لقد وضع الاسلام مبدأ عاما يحكم الأوضاع الدينية للأقليات ، هذا المبدأ هو قوله تعالى : « لا اكراه فى الدين » (٥٠) • أما الأوضاع المدنية والأحوال الشخصية لهذه الأقليات فالشريعة الاسلامية تحكمها ان هم تحاكموا الى المسلمين « فان جاءوك فاحكم بينهم أو اعــرض عنهم وان تعرض عنهم فلن يضروك شــيئا ، وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط » (٥١) • فان لم يتحاكموا الى المسلمين فان عليهم أن يتحاكموا الى شرائعهم ما دامت تنتمى عندهم لأصل سماوى « وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتــــولون من بعد ذلك » (٥٢) • « وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه » (٥٣) •

---

(٤٦) سورة التوبة ٦ •
(٤٧) سورة آل عمران ٩٧ •
(٤٨) سورة البقرة ١٢٥ •
(٤٩) المادة ١٤ البند « أ » •
(٥٠) سورة البقرة ٢٥٦ •
(٥١) سورة المائدة ٤٢ •
(٥٢) سورة المائدة ٤٣ •
(٥٣) سورة المائدة ٤٧ •

٩ ـ حق الانسان فى أن يشارك فى الحياة العامة :

لقد قرر الاسلام حقا لكل انسان فى أن يعلم ما يجرى فى حياة أمته ، من أمور تتعلق بمصلحة المجتمع ، فلكل انسان أن يشارك فى هذه الأمور بحسب مواهبه وقدراته . وذلك اعمال لمبدأ مهم فى الاسلام هو مبدأ الشورى ، قال تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » (٥٤) . وكل انسان يصلح لأن يتولى المناصب والوظائف العامة فى أمته ، متى تحققت فيه شرائطها الشرعية ، ولا تسقط هذه الصلاحية ، أو ينتقص منها ، لأى سبب من الأسباب الطبقية أو العنصرية ، اذ « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، وهم يد على من سواهم ، يسعى بذمتهم أدناهم » (٥٥) .

ومبد أالشورى هو أساس العلاقة بين الراعى والرعية . فمن حق الرعية أن تختار راعيها ، بارادتها الحرة بناء على هذا المبدأ المهم، كما أن من حقها محاسبته وعزله اذا حاد عن الشريعة وتنفيذها ، فقد قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه عندما تولى الخلافة : « انى وليت عليكم ولست بخيركم فان رأيتمونى على حق فأعينونى ، وان رأيتمونى على باطل فقومونى . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فان عصيت فلا طاعة لى عليكم » .

لقد عبر « الاعلان العالمى » عن هذا الحق بقوله : « لكل انسان الحق فى الاشتراك فى حكومة بلاده سواء أكان ذلك مباشرة أم بواسطة ممثلين منتخبين انتخابا حرا » . « لجميع الأفراد على السواء الحق فى الالتحاق بالوظائف العامة فى بلادهم ... » (٥٦) .

---

(٥٤) سورة الشورى ٣٨ .

(٥٥) رواه الامام أحمد .

(٥٦) البندان «أ» ، «ب» من المادة الحادية والعشرين .

١٠ — حق الاعتقاد والتفكير والتعبير •

من حق كل انسان — فى الاسلام — أن يعتقد ، وأن يفكر ، وأن يعبر عن اعتقاده وفكره ، دون تدخل أو مصادرة من أى جهة طالما كان هذا الاعتقاد والتفكير والتعبير يلتزم الحدود والمبادىء العامة التى يقرها الشرع • فلا يجوز — بحال — نشر الباطل ، ولا اذاعة ما فيه ترويج للفحش أو تثبيط للدولة الاسلامية « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا • ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا » (٥٧) •

ان الاسلام يجعل التفكير الحر النزيه الباحث عن الحق واجبا على المسلم لا يجوز له أن يتخلى عنه : « قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » (٥٨) •

كما أن من حق كل انسان ، بل ومن واجبه ، أن يعبر عن رفضه للظلم ، وأن ينكره ، وأن يقاومه ، دون خوف من أحد ، لأن هذا من أفضل الجهاد الذى أمرنا الله ورسوله به • فقد سئل النبى صلى الله عليه وسلم : « أى الجهاد أفضل ؟ قال : كلمة حق تقال عند سلطان جائر » (٥٩) •

واذاعة المعلومات الصحيحة والحقائق أمر لا يحظره الاسلام الا اذا كان ذلك يحتوى على خطر يهدد أمن الدولة وسلامتها • يقول سبحانه : « واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » (٦٠) •

---

(٥٧) سورة الأحزاب ٦٠ — ٦١ • (٥٨) سورة سبأ ٤٦

(٥٩) رواه الترمذى والنسائى •

(٦٠) سورة النساء ٨٣.

واذا كان الاسلام يقر حق التفكير والاعتقاد والتعبير فانه بناء على هذا لا يجيز لانسان أن يسخر من معتقدات انسان آخر ، ولا أن يثير المجتمع ضده ، لأن احترام مشاعر المخالفين فى الدين من خلق المسلم الحقيقى « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم » (٦١). بل ان الاسلام قد كفل الحرية الدينية لكل انسان ، فله أن يعتقد ما يشاء وأن يقيم عبادته بحسب معتقده : « لكم دينكم ولى دين » (٦٢) .

وحق الانسان فى أن يكون حرا فى تفكيره واعتقاده وتعبيره عبر عنه « الاعلان العالمى » بقوله : « لكل انسان الحق فى حرية الفكر والضمير والدين » . و « لكل انسان الحق فى حرية الرأى والتعبير عنه ، ويتضمن هذا الحق حرية اعتناق الآراء بمأمن من التدخل ، وحرية التماس المعلومات والأفكار وتلقيها واذاعتها بمختلف الوسائل دون تقيد بحدود الدولة » (٦٣) .

١١ ــ حق الدعوة والتبليغ :

من حق كل انسان أن يشارك فى حياة المجتمع الذى يعيش فيه سواء كان ذلك دينيا ، أو اجتماعيا ، أو ثقافيا ، أو سياسيا أو غير ذلك ، وأن ينشىء من الوسائل ما يكفل له هذا الحق وممارسته « قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » (٦٤) .

كما أن من واجب كل انسان مسلم أن يأمر بالمعروف وأن ينهى عن المنكر ، وأن يطلب من مجتمعه أن يقيم مؤسسات تمكن للأشخاص أن يقوموا بهذا الواجب ، وذلك من باب التعاون على البر والتقوى ،

---

(٦١) سورة الأنعام ١٠٨ .
(٦٢) سورة الكافرون ٦ (٦٣) المادتان ١٨ ، ١٩ .
(٦٤) سورة يوسف ١٠٨ .

والتناهى عن الاثم والعدوان • « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون المعروف وينهون عن المنكر » (٦٥) • « وتعاونوا على البر والتقوى » (٦٦) ، « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب » (٦٧) •

وهذا الحق عبر عنه « الاعلان العالمى » بقوله : « لكل انسان الحق فى حرية حضور الاجتماعات السلمية والانضمام الى الجمعيات ذات الأغراض السلمية » • « لا يجوز اكراه انسان على الانضمام الى جمعية من الجمعيات » (٦٨) • « لكل انسان الحق فى الاشتراك بمحض ارادته فى حياة المجتمع الثقافية » (٦٩) •

١٢ — الحقوق الاقتصادية والعمالية :

ان الثروات الطبيعية بجميع أنواعها ، بل الطبيعة كلها ، والكون كله ملك لله سبحانه « لله ملك السموات والأرض وما فيهن » (٧٠) • وقد منح الله الانسان حق الانتفاع بهذه الثروات فسخر الطبيعة له « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه » (٧١) • وقد حرم الله على الانسان أن يفسد ما سخر له أو يخربه « ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » (٧٢) • وليس لانسان أن يحرم انسانا آخر من الانتفاع بما فى الطبيعة من مصادر رزق أو يعتدى على حقه فى هذا بأى حال « وما كان عطاء ربك محظورا » (٧٣) •

ومن هنا فلكل انسان أن يحصل رزقه من وجوهه المشروعة ، أى أن يعمل وينتج فى مجال مباح « فامشوا فى مناكبها وكلوا من

---

(٦٥) سورة آل عمران ١٠٤ •

(٦٦) سورة المائدة ٢

(٦٧) رواه أصحاب السنن •

(٦٨) المادة ٢٠

(٦٩) المادة ٢٧ البند « أ » •

(٧٠) سورة المائد ١٢٠ •

(٧١) سورة الجاثية ١٣ •

(٧٢) سورة الشعراء ١٨٣

(٧٣) سورة الاسراء ٢٠ •

رزقه » (٧٤) • وله أن يتملك ما اكتسبه بجهده وعمله اذ الملكية الخاصة أمر مشروع سواء كانت على انفراد أو مشاركة « وأنه هـو أغنى وأقنى » (٧٥) • واذا كان الاسلام يقر الملكية الخاصة فانه فى الوقت نفسه يقر الملكية العامة ، ويوظفها لصالح المجتمع ككل « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » (٧٦) •

وقد عبر « الاعلان العالمى » عن هذا بقوله : « لكل انسان الحق فى التملك ، سواء وحده أو بالاشتراك مع غيره » • « لا يجوز حرمان انسان من أملاكه بغير مسوغ قانونى » (٧٧) •

غير أن الاسلام يزيد على هذا حيث جعل لفقراء الأمة حقا مقررا فى مال أغنيائها ، هذا الحق لا يجوز تعطيله أو منعه أو الترخص فيه من جانب أى انسان • هذا الحق نظمته الزكاة التى هى أحد الأركان الأساسية فى الاسلام • ولهذا قاتل أبو بكر الذين امتنعوا عن أداء الزكاة •

كما أن الاسلام ينهى المسلمين عن اهمال مصادر الثروة ووسائل الانتاج أو تعطيلها ، ويأمرهم بتوظيفهما لصالح المجتمع كله ، لأنه « ما من عبد استرعاه الله رعية فلم يحطها بالنصيحة الا لم يجد رائحة الجنة » (٧٨) • وقد نهى الاسلام أيضا عن استثمار الثروة ووسائل الانتاج فيما حرمته الشريعة ، حيث المبدأ العام فى الاسلام أنه « لا ضرر ولا ضرار » •

---

(٧٤) سورة الملك ١٥
(٧٥) سورة النجم ٤٨ •
(٧٦) سورة الحشر ٩
(٧٧) المادة ١٧ •
(٧٨) متفق عليه

ان الاسلام قد وضع الضوابط التى ترشد النشـاط الاقتصادى، وتضمن سلامته • من هذه الضوابط :

(أ) أن الاسلام حـرم الغش بكل أشـكاله « ليس منا من غش » (٧٩) •

(ب) أنه حرم الغرر والجهالة ، وكل ما يؤدى الى منـازعات لا تخضع لمقاييس موضوعية ، فقد « نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن بيع العنب حتى يسود وعن بيع الحب حتى يشتد » (٨٠) • فالاسلام يحرم بيع الأشياء المجهولة وغير المحددة كما فى هذا الحديث وكبيـع الطير فى الهواء والسمك فى المـاء وغير ذلك مما يؤدى الى التنـازع بين الناس بسبب الجهالة وعدم التحديد للمتعاقد عليه •

(ج) أنه حرم الاستغلال والتظالم فى عمليات التبـادل « ويل للمطففين • الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون • واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » (٨١) •

(د) أنه حرم الاحتكار لضروريات النـاس ، وكل ما يؤدى الى منافسة غير متكافئة ، فالمحتكر يسـتغل حاجات الناس ويربح ربحـا فاحشا على حسابهم ، و « لا يحتكر الا خاطىء » (٨٢) و « من احتكر طعاما أربعين يوما فقد برىء من الله وبرىء الله منه » (٨٣) •

(هـ) أنه حرم الربا وكل كسب طفيلى يستغل ضوائق الناس ، لأنه ربح بلا جهد ، ولأنه يقضى على روح التعـاون ، ويؤدى الى

(٧٩) رواه مسلم •
(٨٠) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى •
(٨١) سورة الطففين ١ ـ ٣ ، (٨٢) رواه مسلم •
(٨٣) رواه أحمد •

تضخم الثروات وزيادة الفروق بين الطبقات ، وكثيرا ما كان اقتراض الدول وسيلة للاستعمار وفقدان الاستقلال الوطنى (٨٤) .

(و) أنه حرم كنز الأموال وتكديسها فى أيدى فئـــة قليلة من الناس ، لأن فى ذلك منعا لها من التبادل الاقتصادى الذى لا بد منـه لحاجة المجتمع الاسلامى لاستخدامها والانتـــاج وزيادة الموارد الاقتصادية والدخل القومى .

(ز) أنه حرم بيع الأشياء المحرمة ، كالخنزير والخمر والأصنام والصلبان وغيرها ، لمـا فى ذلك من المعصية .

(ح) أنه حرم الاسراف فى اســتعمال المــال ، لمـا فى ذلك من تبديد لأموال يحتاجها المجتمع الاسلامى . كما حرم أن يكون التملك بوسائل غير مشروعة كالسرقة أو النهب أو الغصب (٨٥) .

(ط) أنه حرم الدعايات الكاذبة والخادعة فى البيـع والشراء ، اذ « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فان صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وان غشا وكذبا محقت بركة بيعهما » (٨٦) .

هذا ، والقيد الوحيد على النشاط الاقتصـــادى فى المجتمع الاسلامى هو رعاية مصالح الناس والتزام القيم العامة للاسلام .

ويتصل بالحقوق الاقتصادية أنه لا يجوز انتزاع ملكية نتجت عن كسب حلال الا لمصلحة عامة « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » (٨٧) على أن يعطى لصاحبها تعويضا عادلا ، لأنه « من أخـــذ من الأرض

---

(٨٤) د. محفوظ عزام : نظرات فى الثقافة الاسلامية ص ٢٥٨ .
(٨٥) المرجع السابق ص ٢٥٩ .
(٨٦) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .
(٨٧) سورة البقرة ١٨٨ .

شيئا بغير حقه خسف به يوم القيامة الى سبع أرضين » (٨٨) • وهذه الملكية العامة لها حرمة أعظم ، وعقوبة الاعتداء عليها أشد ، لأنه عدوان على المجتمع بأسره ، وخيانة للأمة كلها « من استعملناه منكم على عمل فكتمنا فيه مخيطا فما فوقه كان غلولا يأتى به يوم القيامة » (٨٩) • وقد « قيل يا رسول الله : ان فلانا قد استشهد ! قال : كلا ! لقد رأيته فى النار بعباءة قد غلها • ثم قال : يا عمر : قم ، فناد : انه لا يدخل الجنة الا المؤمنون (ثلاثا) » (٩٠) •

هذه هى الحقوق الاقتصادية أما فيما يتعلق بالحقوق العمالية فاننا نستطيع القول بأن « العمل » شعار رفعة الاسلام لمجتمعه « وقل اعملوا » (٩١) • وحق العمل فى الاسلام هو الاتقان لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » (٩٢) •

أما حق العامل فيتلخص فيما يلى :

(أ) أن يأخذ أجرا يتناسب مع ما يبذله من جهد من غير أن يظلم أو يماطل فى اعطائه حقه « أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه » (٩٣) •

(ب) أن يحيا حياة كريمة تتكافأ مع ما يبذله من جهد وعرق « ولكل درجات مما عملوا » (٩٤) •

(ج) أن يحظى بما هو جدير به من تكريم المجتمع بأسره له

---

(٨٨) رواه البخارى

(٨٩) رواه مسلم •

(٩٠) رواه مسلم والترمذى •

(٩١) سورة التوبة ١٠٥ •

(٩٢) رواه أبو يعلى •

(٩٣) رواه ابن ماجة •

(٩٤) سورة الأحقاف ١٩

« فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنـــون » (٩٥) • و « ان الله يحب المؤمن المحتـــرف » (٩٦) •

(د) أن يحظى بالرعاية والحماية ، فلا تستغل ظروفه ولا يظلم، لقول الله تعالى : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطــه أجـــره » (٩٧) •

وقد عبر « الاعلان العالمى » عن الحقوق العمالية بقوله : « لــكل انسان حق العمل وحرية اختياره وله حق العمل فى ظروف عادلة ملائمة وحق الحماية من التعطل » • « لجميع الأفراد الحق فى أن يتقاضـــوا أجورا متكافئة عن الأعمال المتكافئة دون أى تمييز بينهم » • « لــكل من يعمل الحق فى أن يتقاضى عن عمله أجرا عادلا مناسبا يكفــل له ولأسرته حياة كريمة ويضاف الى هذا الأجر غيره من وسائل الحمـــاية الاجتماعية اذا اقتضى الأمر » (٩٨) •

١٣ ــ حق الانسان فى أن ينال ما يكفيه :

من حق كل انسان أن يحصل على كفايته من مقومات الحيـــاة وضرورياتها ، من مطعم ومشرب وملبس ومسكن ، وما يلزم لصـــحة جسمه من رعاية ، وما يلزم لصحة روحه وعقله من علم ومعرفة وثقافة فى نطاق ما تسمح به موارد الدولة • يضاف الى ذلك كل ما لا يستطيع الفرد أن يستقل بتوفيره لنفسه فعلى الأمة توفيره •

---

(٩٥) سورة التوبة ١٠٥ •

(٩٦) رواه الطبرانى (٩٧) حديث قدسى • رواه البخارى •

(٩٨) المادة ٢٣ ، البنود أ ، ب ، ج •

١٤ ــ حــق بنــاء الأسرة :

من حق كل انسان أن يتزوج • فالزواج هو الطريق الشرعى لبناء الأسرة وانجاب الذرية واعفاف النفس •

ولكل من الزوجين حق قبــل الآخر وعليــه واجب « ولهن مثــل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » (٩٩) • وللأب أن يربى أولاده وفقا لعقيدته وشريعته من الناحية البدنية والخلقية والدينية ، وهو مسئول عن اختياره فى توجيههم « كلكم راع وكلكم مســئول عن رعيتـــه » (١٠٠) •

كما أن لكل من الزوجين قبل الآخر حق احترامه ، وتقدير مشاعره وظروفه فى اطار من المودة والرحمة ، لقوله تعــالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعـــــل بينــكم مودة ورحمة » (١٠١) ، وعلى الزوج أن ينفق على زوجته وأولاده من غــير تقتير « لينفق ذو ســعة من ســعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق ممــا آتاه الله » (١٠٢) •

وعلى الأبوين أن يحسنا تربية طفلهما وتعليمه وتأديبه ، لأن هذا حق له عليهما « وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » (١٠٣) •

ولا يجوز تشغيل الطفل فى سن مبكرة ، ولا تحميله من الأعمــال ما يرهقه أو يعوق نموه ، أو يحول بينه وبين حقه فى التعلم واللعب • واذا عجز الأبوان عن القيام بمسئوليتهما نحو طفلهما ، فان هـــذه المسئولية تنتقل الى الدولة ، بحيث ينفق على الطفــل من بيت مال

---

(٩٩) سوة البقرة ٢٢٨ •

(١٠٠) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى •

(١٠١) سورة الروم ٢١ (١٠٢) سورة الطلاق ٧ •

(١٠٣) سور الاسراء ٢٤ •

المسلمين أو الخزانة العامة للدولة بالتعبير الحديث • يقول عليه الصلاة والسلام : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، فمن ترك دينا ، أو ضيعة (١٠٤) فعلى ، ومن ترك مالا فلورثته » (١٠٥) •

لقد كفل الاسلام لكل انسان فى الأسرة أن ينال منها ما هو فى حاجة اليه ، سواء كان رعاية وحنانا أو كفاية مادية ، وذلك فى كل مراحل العمر وفى جميع الحالات ، وللوالدين على أولادهما حق كفالتهما ورعايتهما ، وللأمومة حق فى رعاية خاصة من الأسرة •

ان مسئولية الأسرة شركة بين أفرادها ، كل بقدر ما يستطيع وهى مسئولية تتسع دائرتها لتشمل الأقارب وذوى الأرحام •

« يارسول الله : من أبر ؟ قال : أمك • ثم أمك • ثم أمك • ثم أباك• ثم الأقرب فالأقرب » (١٠٦) •

وفى الاسلام لا يجبر الفتى أو الفتاة على الزواج ممن لا يرغب فيه، فقد « جاءت جارية بكر الى النبى صلى الله عليه وسلم فذكرت أن أباها زوجها وهى كارهة فخيرها النبى صلى الله عليه وسلم » (١٠٧) •

أما حقوق الزوجة فهى :

(أ) أن يعطيها زوجها مهرا « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » (١٠٨) •

(ب) أن تعيش مع زوجها حيث يعيش « أسكنوهن من حيث سكنتم » (١٠٩) •

---

(١٠٤) أى ذرية ضعافا يخشى عليهم الضياع •
(١٠٥) رواه الشيخان وأبو داود والترمذى •
(١٠٦) رواه أبو داود والترمذى •
(١٠٧) رواه أحمد وأبو داود (١٠٨) سورة النساء ٤
(١٠٩) سورة الطلاق ٦ •

(جـ) أن ينفق عليها طوال زواجهما ، وخلال فترة عدتها ان هو طلقها : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » (١١٠) . « وان كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن » (١١١) . وأن تأخذ من مطلقها نفقة من تحضنهم من أولاده منها ، بما يتناسب مع كسب أبيهم « فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن » (١١٢) .

(د) أن تطلب من زوجها انهاء العقد وديا عن طريق الخلع « فان خفتم ألا يقيما » أى الزوجان « حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به » (١١٣) . كما أن لها أن تطلب التطليق قضائيا فى حدود الأحكام الشرعية الخاصة بذلك .

(هـ) أن ترث زوجها « ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم » (١١٤) .

(و) ألا يظلمها زوجها ، بأن يهجرها لغير عذر شرعى ، أو يمسكها فى بيته وهو غير راغب فيها ، لمجرد الضرر والاعتداء ، أو يكون متزوجا بأكثر من واحدة فلا يعدل فى ميله لهن . « ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه » (١١٥) « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » (١١٦) .

(ز) على كلا الزوجين أن يحفظ غيب صاحبه ، وألا يفشى شيئا من أسراره ، وألا يكشف عما قد يكون به من نقص خلقى و خلقى .

---

(١١٠) سوورة النساء ٣٤ .

(١١١) سورة الطلاق ٦

(١١٢) سورة الطلاق ٦ .

(١١٣) سورة البقره ٢٢٩

(١١٤) سورة النساء ١٢ .

(١١٥) سورة البقرة ٢٣١ .

(١١٦) سوره النساء ١٢٩ .

ويتأكد هذا الحق عند الطلاق وبعـده « ولا تنسـوا الفضـلة بينـكم » (١١٧) ٠

١٥ ــ حـق التربيـة والتعليم :

اذا كان البر والاحسان فى المعاملة حق الآباء عـلى الأولاد فان التربية الصالحة حق الأولاد على الآباء ٠

ولكل انسان ــ ذكرا كان أو أنثى ــ الحق فى أن يتعلم ٠ وطلب العلم واجب على الجميع ، بل ان « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسـلمة » (١١٨) ٠

كما أن التعليم حق لغير المتعـلم على المتعلم « ليبلغ الشـاهد الغـائب » (١١٩) ٠

وعلى المجتمع أن يتيح فرصة التعلم والاستنارة لكل انسانا ٠ ولكل انسـان أن يختار ما يتوافق مع مواهبـه وقدراته الذاتية « كل ميسر لمـا خلق له » (١٢٠) ٠

١٦ ــ حق الانسان فى حماية خصوصياته :

ان سرائر البشر لا يطلع عليها الا الله وحده « أفـلا شققت عن قلبه » (١٢١) ٠ وخصوصيات الناس حمى لا يحل التسـور عليه « ولا تجسسـوا » (١٢٢) ٠ « يا معشر من أسلم بلسـانه ولم يفض

---

(١١٧) سورة البقرة ٢٣٧ ٠ (١١٨) رواه ابن ماجة ٠

(١١٩) من خطبة النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ٠

(١٢٠) رواه الشيخان وأبو داود والترمذى ٠

(١٢١) رواه مسلم (١٢٢) سورة الحجرات ١٢

الايمان الى قلبه : لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم ، فانه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله » (١٢٣) .

١٧ — حق حرية الارتحال والاقامة :

من حق كل انسان أن يتنقل من مكان اقامته ويرجع اليه ، كما أن له أن يرحل ويهاجر من موطنه ثم يعود اليه ، من غير تضييق عليه أو تعويق له « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » (١٢٤) . « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » (١٢٥) .

وفى الوقت نفسه لا يجوز اجبار شخص على ترك موطنه ، ولا ابعاده عنه من غير سبب شرعى « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله » (١٢٦) .

كما أن دار الاسلام واحدة ، فهى وطن لكل مسلم ، ولا يجوز أن تقيد حركته فيها بحواجز جغرافية أو سياسية وعلى كل بلد اسلامى أن يستقبل من يهاجر اليه أو يدخله من المسلمين ، لأن المؤمنين اخوة ، « والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (١٢٧) .

تلك هى أهم الحقوق التى كفلها الاسلام للانسان أيا كان

---

(١٢٣) رواه أبو داود والترمذى .

(١٢٤) سورة الملك ١٥ — (١٢٥) سورة النساء ٩٧ .

(١٢٦) سورة البقرة ٢١٧ — (١٢٧) سوره الحشر ٩ .

ذكرناها فى ايجاز شديد • ويبقى بعد ذلك أن نتحدث عن حقوق البيئة الطبيعيـــة •

(ب) حقوق البيئة الطبعيـــة :

من حق البيئة الطبيعية بما فيها من أنهار وبحار وأودية وجبـال وزروع ناضرة وحدائق ذات بهجة ، وحيوانات تجمـع بين النفـع والجمال أن نحافظ عليها وألا نعرضها للتخريب والفساد فاهلاك الحرث والنسل من أقبح صور الفساد التى يبغضها الله ، والرسول صلى الله عليه وسلم يدعو كل مسلم لأن يبذل ما يستطيع من جهد لكى يجعـل الأرض خضراء جميلة حتى فى أشد الأوقات حرجا • « ان قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فان اســتطاع الا يقوم حتى يغرسـها فليغرسها » (١٢٨) • بل ان اتاحة الزروع والثمار للناس والحيـوان والطير أمر يثاب عليه الانسان « لا يغرس مسلم غرسا فيأكل منـه انسان ولا دابة ولا طير الا كان له صدقة الى يوم القيامة » (١٢٩) •

والقرآن الكريم ملىء بالآيات التى توقظ فى وجـدان المسلم الاحساس بالجمال الموجود فى الطبيعة ، والتى تدعوه الى اعتبار هذا الجمال من أعظم نعم الله على الانسان • ومن هنا فان علينا أن نحافظ على البيئة الطبيعيـة بما فيها من زروع وأشـجار وثمار جميلة وألا نخربها أو نفسدها ، وألا نترك الأرض دون زرع •

أما حقوق الحيوان فى الاسلام فهى :

١ ــ أن نطعمه ونسقيه • فقد « دخلت امرأة النار فى هـرة حبستها حتى ماتت ، فلا هى أطعمتها وسقتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » (١٣٠) • و « بينما رجل يمشى بطريق اشـتد عليه

---

(١٢٨) رواه البخارى

(١٢٩) متفق عليه •

(١٣٠) رواه البخارى

العطش ، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فاذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان قد بلغ منى . فنزل البئر فملأ خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له » . قالوا : « وان لنا فى البهائم أجرا يا رسول الله ؟ » فقال : « فى كل كبد رطبة أجر » (١٣١) .

٢ ــ ألا نؤذيه أو نعذبه ، فقد روى عبد الله بن مسعود : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فرأينا حمرة « طائر مثل العصفور » معها فرخان فأخذناهما ، فجاءت الحمرة تعرش « ترفرف » فلما جاء صلى الله عليه وسلم قال من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها اليها » (١٣٢) . وقد « مر عبد الله بن عمر بفتيان من قريش وقد نصبوا طيرا واتخذوه غرضا « أى هدفا يتعلمون عليه الرمى بالسهام » فقال : ان النبى صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا » (١٣٣) .

٣ ــ ألا نتخذ من تعذيبه ملهاة نلهو بها ، فقد « نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن التحريش بين البهائم » (١٣٤) والتحريش بينها هو اغراء بعضها ببعض لتتقاتل .

٤ ــ أن نعتنى به ، فنعالجه اذا مرض ، ولا نحمله ما لا يطيق ، ولا نعذب الذبيحة ، ولا أن نذبح حيوانا أمام حيوان آخر ، فلنا : « فى كل كبد رطبة أجر » ، كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم :

هذه هى أهم حقوق الحيوان فى الاسلام وكلها تنطوى على خلق الرحمة ، وهى لا تنزع الا من شقى .

---

(١٣١) متفق عليه .
(١٣٢) رواه أبو داود .
(١٣٣) رواه الشيخان وأبو داود .
(١٣٤) رواه أبو داود والترمذى .

وهكذا ننتهى من خلق أداء الأمانات الى أهلهــا الذى أمرنا الله ــ سبحانه ــ به ، وأمرنا رسوله بالوفاء به ذكرناه فى ايجــاز تاركين التفصيل لدراسة مستقلة ان شاء الله تعالى .

٢ ــ الشــــجاعة

الشـــجاعة هى فضيلة القوة الغضبية عندما تضبط فى عملهـــا بالعقل (١٣٥) وهى احدى أمهات الفضائل التى ينبغى أن يتحلى بهـــا الانسان دائمـــا .

ومن الشجاعة ما هو مذموم كشـــجاعة من يحارب كى يصـــل الى مأكل أو منكح ، وكشاجاعة من يقدم لثوران غضب وتطلب غلبة . ومنها ما هو محمود كمن يحارب ليدافع عن الدين . ومن الشجاعة المحمودة مجاهدة الانسان نفسه أو غيره « وكل واحد منهما ضربان : مجـــاهدة النفس بالقول : وذلك بالتعلم ، وبالفعل : وذلك بقمع الشهوة وتهذيب الحمية . ومجاهدة الغير بالقول وذلك تزيين الحق وتعليمه ، وبالفعل وذلك مدافعة الباطل ومتعاطيه بالحرب » (١٣٦) .

فالشـــجاعة ــ اذن ــ نوعان :

(أ) شجاعة فى القول أو الرأى .

(ب) شجاعة فى الفعل أو الحرب .

ولمــا كان رسولنا صلى الله عليه وسلم « القدوة الحســـــنة » و « بطل الأبطال » فسنكتفى ببيان خلق الشجاعة بنوعية عنده لأنه ضرب أروع الأمثلة فى هذا الخلق وبشكل لا نجد له شبيها على الاطلاق .

---

(١٣٥) المعجم الفلسفي ص ١٠١ .

(١٣٦) الراغب الأصــفهانى : كتــاب الذريعة الى مكارم الشريعة تحقيق د. أبو اليزيد العجمى ص ٣٢٩ .

وتتجلى شجاعته صلى الله عليه وسلم فى الرأى حين خرج على قومه مفاجئا بالدعوة التي كرهوها ، وحين صبر على الأذى والسخرية، وحين المقاطعة ، وحين بعث أنصاره الى الحبشة فرارا من الأذى والموت ، وبقى هو يتعرض للأذى ، وحين مات عمه أبو طالب وزوجه خديجة فى أيام متتابعات ، وكان فى عمه وزوجه الوزير والنصير ، وحين فرض نفسه على القبائل ، وحين هاجر أنصاره الى يثرب ، وبقى هو يقيم صلاته ويجهر بالقرآن قبل أن يهاجر (١٣٧) •

وسنضرب بعض الأمثلة لشجاعته فى الرأى لا نجد لها نظيرا فى التاريخ القديم أو الحديث ، فمن ذلك ما حدث بينه وبين عمه أبى طالب •

والذى حدث أن وفدا من زعماء قريش قد جاء الى أبى طالب ينذره ، ويطلب اليه أن يكف ابن أخيه عن قريش ، أو تنازله حتى يهلك أحد الفريقين ، فعظم الأمر على أبى طالب ، وخشى عواقب ذلك ، فبعث الى محمد قائلا له : ان قومك قد أنذرونى ، فأبق علىّ وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق •

فأجاب محمد : يا عمى ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته • وبكى وقام ، فلما ولى ناداه أبو طالب : أقبل يا ابن أخى، فأقبل ، فقال : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا » (١٣٨) •

---

(١٣٧) عبد الرحمن عزام : بطل الأبطال أو أبرز صفات النبى محمد ص ٢٤ •

(١٣٨) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ٢٨٤ •

فهذا مثال عظيم للشجاعة فى الرأى وللثبات على الحق والمبدأ ضربه الرسول صلى الله عليه وسلم ليكون قدوة لنا •

أما شجاعته فى الحرب فلا تقل عن شجاعته فى الرأى ، وأكتفى هنا بمثالين فقط لهما أهميتهما الكبرى •

(أ) فزع أهل المدينة ليلة ، فانطلق ناس قبل صوت ، فتلقاهم رسول الله راجعا ، وقد سبقهم الى ذلك الصوت ، وعرف الخبر وكان راكبا فرسا وسيفه فى عنقه ، وهو يقول لأهل المدينة : لن تراعوا •

(ب) ويوم حنين وقف على بغلته ، والناس يفرون عنه،وهو يقول:

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

فمارئى أحد يومئذ كان أثبت منه ، ولا أقرب للعدو • وهاتان الحادثتان مهمتان جدا ، لأن الأولى منهما هب فيها رسول الله الى مكان الخطر ، قبل أن يتحرك الناس ، وفى الثانية ثبت فى مكان الخطر وقد فر الناس • والذين لهم علم بالحرب يعرفون أنه بهذين الموقفين تمتحن الشجاعة ، فليس أصعب على النفس من السبق الى الخطر ، ولا من الصبر عليه وقد استولى الخوف ، وغلب الرعب •

٣ ـ الجهـاد

الجهاد خلق اسلامى أصيل ، ومن هنا فالذى يتمتع بروح الجهاد يكون مسلما حقا ، والاسلام فى أمس الحاجة الى مسلمين أقوياء ذوى أخلاق يرفعون من شأنه ويحملون رايته •

(أ) الجهاد مصطلح اسـلامى

لقد شرف الله ـ سبحانه هذه الأمة الاسلامية بفريضة الجهاد ، تكريما لهـا ، واعزازا لشـأنها بين الأمم فى كل زمان ومكان ، بل انه سبحانه قد اختار هذه الأمة لتلك الغاية « وجاهدوا فى الله حق جهـاده هو اجتباكم » (١٣٩) « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (١٤٠) « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (١٤١) •

فالأمة الاسلامية ـ لحكمة سبقت من الله عز وجل ـ أمة مجاهدة عزيزة الجانب ، لا تخضع لغير الله ولا ترضى بذل ، ولا تستكين الى هوان ولا تركن الى دعة ولا الى ترف ، بل تسعى ـ دائما ـ لاعلاء كلمة الله ونصرة الحق ، والدفاع عن العقيدة والوطن والأمة وكل مظلوم على هذه الأرض •

ولأهمية مبدأ الجهاد فى الاسلام فقد جعله الله ـ جل شـأنه ـ قرين الايمان بالله ودليلا عليه أو ثمرة طبيعية له « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون » (١٤٢) •

---

(١٣٩) سورة الحج آية ٧٨ •
(١٤٠) سورة آل عمران آية ١١٠.
(١٤١) سورة البقرة آية ١٤٣
(١٤٢) سورة الحجرات آية ١٥ •

مفهوم الجهاد :

الجهاد لغة : مأخوذ من (الجهد) ـ بفتح الجيم ـ وهو المشقة ، لما فيه من ارتكابها ، أو (الجهد) بضم الجيم ـ بمعنى الطاقة ، لأن المجاهد يبذل طاقتـه فى دفع ومقـاتلة الأعداء من النفس والشـيطان والكافرين وغيرهم •

والجهاد شرعا : استفراغ الطاقة فى مدافعة الأعداء وقتالهم ويطلق على جهاد النفس والشيطان والفاسـقين (١٤٣) أ وهو بذل كل طاقاتنا ومواردنا لكى نقيم حيـاتنا على هذه الأرض على النظام الاسـلامى تنفيذا لأمر الله وتطبيقا لشريعته واعلاء كلمته (١٤٤) •

ان الجهاد كلمة عربية أصيلة ومصطلح اسلامى فريد لا نجد له نظيرا فى غير اللغة العربية ولا فى غير الاسلام ، ولهذا فان ترجمة هذا المصطلح الى أى لغة أخرى تكون غير دقيقة وغير مستوعبة لمعناه ، فعلى سبيل المثال بعض الناس يترجم هذا المصطلح الى اللغة الانجليزية بمعنى Holy War أى (الحرب المقدسة) فهذه الترجمة فى الواقع لا تعبر عن معنى (الجهاد) الاسلامى ولا تستوعبه ، لأن الجهاد فى الاسـلام مصطلح عام وشامل ، والحرب جزء من الجهاد ، وليس كل الجهاد ، اذن فهذه الترجمة لا تصلح على الاطلاق للتعبير عن معنى الجهاد كما جاء به الاسلام كمصطلح خاص به • والفاهمون لهذا المعنى لا يترجمون هذا المصطلح أبدا الى اللغات الأخرى بل يبقون عليه كما هو ، فقط يستبدلون بالحروف العربية حروفا لاتينية ويبقى اللفظ كما هو (١٤٥)

---

(١٤٣) السـيد سـابق : فقه السنة جـ ٣ ص ٢٧ ، أحمد عيسى عاشور : الفقه الميسر ص ٣٦٨ •

(١٤٤) Ghulam Sarwar : Islam, Beliefs and Teachings London, 1982 p.81

(١٤٥) من الأمثلة على ذلك الترجمة الرائعة لمعانى القرآن الكريم

=

واذا كان القتال مشروعا فى الاســـلام كجزء من الجهاد فانما هو متبع فى ذلك لشرع من قبلنا • اذ القتال مشروع فى الديانات الســـابقة على الاسلام • فالحرب أو القتال معروف فى اليهودية كما هو معروف فى المسيحية الا أن الاسلام يبقى متفردا فى مصطلحه العظيم (الجهاد) حيث لا نعرف التوراة ولا الانجيل المتداولان بين اليهود والنصـــارى هذا المصطلح ، وانما يعرفان الحرب أو القتال ، وبمعنى مختلف ــ تماما ــ عن معناهما فى الاسلام فقد جاء فى التوراة :

(حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها الى الصـــلح ، فان اجابتك الى الصـــلح وفتحت لك ، فكل الشـــعب الموجود فيها يكون لك بالتســـخير ، ويســـتعبد لك ، وان لم تسـالمك ، بل عملت معك حربا ، فحاصرها ، واذا دفعها الرب الهك الى يدك ، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال ، والبهائم ، وكل ما فى المدينة ، كل غنيمتها فتغنمها لنفســك ، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب الهك ، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا ، التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، واما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب الهك نصيبا فلا تبقى منها نسمة ما) (١٤٦) •

وجاء فى الانجيل :

(لا تظنوا أنى جئت لألقى ســـلاما على الأرض ، ما جئت لألقى

=

التى قام بها الانجليزى المسلم Muhammad Marmaduke Pichthal محمد مارماديوك بكثول تحت عنوان

The Meaning of The Glorious Qur, an

وكذلك تلك الترجمـــة الدقيقة للاربعـــين النـــووية التى قام بترجمتهـــا للانجليزية الدكتور عز الدين ابراهيم والأستاذ دينيس جونسون ديفيز ، تحت عنوان Fort Hadith فقد ترك هؤلاء جميعا مصطلح الجهاد كما هودون ترجمة •

(١٤٦) سفر التثنية ، الاصحاح العشرين ، عدد ١٠ وما بعده •

سلاما ، بل سيفا فانني جئت لأفرق الانسان ضد أبيه ، والابنة ضد أمها ، والكنة ضد حماتها ، وأعداء الانسان أهل بيته ، من احب أبا أو أما أكثر منى فلا يستحقنى ، ومن وجد حياته يضيعها ، ومن أضاع حياته من أجلى يجدها) (١٤٧) .

الجهاد أعم وأشمل من الحرب :

ان سر تميز مصطلح الجهاد أنه جاء عاما وشاملا ، فكل ما فيه اعلاء لكلمة الله فهو من الجهاد ، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو خلاصة الدعوة الاسلامية جهاد ، ورعاية الأبوين جهاد حيث قال النبى صلى الله عليه وسلم لمن أراد أن يستأذنه فى الجهاد (الحرب) : (أحى والداك ؟ قال نعم . قال : ففيهما جاهد) (١٤٨) ورعاية الأهل والأطفال جهاد وكل ما يبذله المسلم فى أى باب من أبواب الخير جهاد .

أنواع الجهاد :

ان الجهاد فى الاسلام أنواع متعددة ، فمنه :

١ ـ جهاد النفس :

وهذا النوع يكون بقهر النفس على التحلى بالمكارم والتخلى عن الرذائل وتعلم أمور الدين ، والسير على منهج خير المرسلين ، والعمل بأحكام شريعة رب العالمين . وهذا هو الجهاد الأكبر والمرتبة الأعلى فى الجهاد ، لأن المسلم لا يمكن أن يجاهد غيره الا اذا جاهد نفسه أولا وقهرها وذللها . و (المجاهد من جاهد نفسه ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) .

٢ ـ جهاد الشيطان :

وهذا النوع من الجهاد انما يكون بدفع مايأتى به من الشبهاتومايزينه

---

(١٤٧) انجيل متى ، الاصحاح العاشر ، عدد ٢٤ وما بعده .

(١٤٨) رواه البخارى وأبو داود النسائى والترمذى .

من الشهوات وما يحدثه من وساوس ، ولقد حذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم منه لأنه يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، كما أمرنا الله سبحانه بألا نتبع خطواته « ياأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من احد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم » (١٤٩) .

٣ ــ جهاد الكفار :

وهذا النوع من الجهاد هو أسمى درجات الجهاد وأرقاها ، لأنه يكون بالنفس والمال واللسان « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » (١٥٠) وقد روى أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم) (١٥١) .

٤ ــ جهاد المنافقين :

وهذا النوع يكون باقناعهم بالحجة الدامغة وارشادهم الى الاخلاص فى القول والعمل « ياايها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير » (١٥٢) .

٥ ــ جهاد الفساق :

وهذا النوع يكون باليد ، ثم باللسان ، ثم بالقلب كما أمر النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان (١٥٣).

---

(١٤٩) سورة النور ٢١ (١٥٠) سورة النساء ٩٥.

(١٥١) رواه أحمد والنسائى والحاكم

(١٥٢) سورة التوبة ٧٣ .

(١٥٣) رواه مسلم والترمذى .

ومن الجهاد دعوة الناس الى الحق ، وحثهم على العمل بكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وترك مجالس السوء ، وهجر صحبة الأشرار ، ونبذ مودة العاصين ، وقطع كل صلة بالفاسقين ، واعلان الحرب على الضالين الغاوين المارقين ، ونصب العالم كله للارشاد والوعظ والهداية والنصيحة ، وتفهيم الناس الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية ، والأحكام الفقهية ، والسيرة النبوية ، وتاريخ أبطال الاسلام وحماته ، والاقبال على النصيحة ، والعمل بها ، والسعى لجنى ثمارها ، ومحبة الصالحين وزيارة المتقين ومودة العاملين والاستضاءة بأنوارهم والاقتداء بأفعالهم •

كل من يفعل ذلك فهو مجاهد ، وكل فعل من ذلك هو جهاد غير أن الجهاد الحقيقى من هذا كله هو ما قصد به وجه الله ، وأريد به اعلاء كلمته ورفع راية الحق ومطاردة الباطل ، وبذل النفس فى مرضاة الله ، فاذا أريد به شىء دون ذلك من حظوظ الدنيا فانه لا يسمى جهادا على الحقيقة ، فمن جاهد ليحظى بمنصب ، أو يظفر بمغنم ، أو يظهر شجاعة، أو ينال شهرة فانه لا نصيب له فى الأجر •

ان النية هى روح العمل ، فاذا تجرد منها كان عملا ميتا ، لا وزن له عند الله ، وان الاخلاص هو الذى يعطى الأعمال قيمتها الحقيقية ، ومن هنا فان المرء يبلغ بالاخلاص درجة الشهداء وان لم يستشهد • واذا لم يكن الاخلاص هو الباعث على الجهاد ، بل كان الباعث شيئا آخر من أشياء الدنيا واعراضها لم يحرم المجاهد الثواب والأجر فقط ، بل انه بذلك يعرض نفسه للعذاب يوم القيامة •

التحذير من ترك الجهاد :

الجهاد هو ذروة سنام الاسلام ، وهو فريضة محكمة دائمة(١٥٤)

---

(١٥٤)
Islamic Council : A model of an Islamic Constitution, 1983.p.23

ولهذا يقول شـيخ الاسلام ابن تيميـة : (فان نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره فى الدين والدنيا ، ومشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة فانه مشتمل من محبة الله تعالى والاخلاص له ، والتوكل عليه ، وتسليم النفس والمـال له ، والصبر والزهد ، وذكر الله ، وسائر أنواع الأعمال ، على مالا يشتمل عليه عمل آخر) (١٥٥) .

ومن هنا حذر الاسـلام من ترك الجهاد أو اهماله ، لأن به حيـاة الأمة : واقامة الدين ، واعلاء كلمة الله . ولهذا اعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم ترك الجهاد خروجا من الدين نستحق عليه الذل والهوان والعذاب ، فقال عليه السلام : (اذا تبايعتم بالعينـة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد سـلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا الى دينكم) (١٥٦) وقال : (ما ترك قوم الجهاد الا عمهم الله بالعذاب) (١٥٧) .

ومعنى هذين الحديثين اننا اذا اهتممنا بشئوننا الحياتية فقط من بيع وشراء وتجارة وتربية ماشية وزرع وتركنا الجهاد سـلط الله علينا ضعفا وامتهانا لا يرفعه حتى نعود الى ديننا وتطبيقه كنظام لحياتنا ، وكذلك عمنا الله بالعذاب النفسى والجسمى فى الدنيا والآخرة والعياذبالله

واذا كان القرآن والسنة قد حذرا من ترك الجهاد فان الصـحابة رضى الله عنهم والسلف الصالح قد حذروا من تركه أيضا ، فهاهو على ابن أبى طالب — كرم الله وجهه — يوجه حديثه لجنـوده حاثا لهم على الجهاد والقتال ومحذرا من تركه ، فيقول : (أما بعد ، فان الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه ، وهو لباس التقوى ، ودرع الله الحصينة ، وجنته الوثيقة . فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل،

---

(١٥٥) ابن تيمية : مجموع الفتاوى جـ ٢٨ ص ٣٥٣ .
(١٥٦) رواه أبو داود وغيره .
(١٥٧) رواه الطبرانى .

وشمله البلاء،وديث بالصغار والقماء(١٥٨) ، وضرب على قلبه بالاسداد، واديل الحق منه بتضييع الجهاد ، ومنع النصف ، الا وانى قد دعوتكم الى قتال هؤلاء ليلا ونهارا ، وسرا واعلانا ، وقلت لكم : أغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غزى قوم قط فى عقر دارهم الا ذلوا فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت الغارات عليكم ، وملكت عليكم الأوطان وهذا أخو غامد قد وردت خيله الانبار ، وقد قتل حسان بن حسان البكرى وازال خيلكم عن مسالحها ، ولقد بلغنى أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع حجلهــا وقلبهــا وقلائدها ورعاثها ما تمتنع منه الا بالاسترجاع والاسترحام ، ثم انصرفوا وافرين مانال رجلا منهم كلم ولا أريق لهم دم • فلو أن امرأ مسلما مات من بعد هذا اسفا ما كان به ملوما ، بل كان به عندى جديرا فياعجبا والله يميت القلب، ويجلب الهم ، من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم، فقبحا لكم ، وترحا ، حين صرتم غرضا يرمى يغار عليكم ولا تغيرون ، وتُغزون ولا تَغزون ، ويعصى الله وترضون فاذا أمرتكم بالسير اليهم فى أيام الحر قلتم : هذه حمارة القيظ امهلنا ينســلخ عنا الحر ، واذا امرتكم بالسير اليهم فى الشتاء قلتم : هذه صبارة القر امهلنا ينسلخ عنا البرد •كل هذا فرارا من الحر والقر ، فأنتم ــ والله ــ من السيف أفر • ياأشباه الرجال ولا رجال ، حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال لوددت انى لم اركم ولم اعرفكم ، معــرفة ــ والله ــ جــرت ندما ، وأعقبت سدما ، قاتلكم الله ، لقد ملأتم قلبى قيحا ، وشحنتم صــدرى غيظا ، وجرعتمونى نغب التهمام انفاسا ، وافسدتم علىّ رأيى بالعصيان والخذلان حتى قالت قريش ان ابن أبى طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب • لله ابوهم ! وهل أحد منهم أشد لها مراســا ، وأقدم فيها مقاما منى ؟! لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، وها أنا قد ذرفت على الستين ولكنه لا رأى لمن لا يطاع (١٥٩) •

---

(١٥٨) كناية عن المذلة والمهانة •

(١٥٩) نهج البلاغة جـ ١ ص ٣٧ •

(ب) حكم الجهاد

ان الجهاد مصطلح اسلامى واسع يشتمل على أنواع كثيرة غير أننا يهمنا أن نركز هنا على جهاد الكفار والمارقين بالقتال ، فما حكم هذا الجهاد ؟ •

لقد فرض الله — عز وجل — القتال وأوجبه فى السنة الثانية من الهجرة وأوجبه سبحانه بقوله : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (١٦٠) •

غير أن القتال تارة يكون فرض كفاية ، وأخرى يكون فرض عين ، يقول ابن تيمية (كما أن الجهاد فرض على الكفاية ، الا أن يتعين فيكون فرضا على الأعيان • مثل أن يقصد العدو بلدا ، أو مثل أن يستنفر الامام أحدا) (١٦١) •

الجهاد فرض كفاية :

الجهاد ليس فرضا على كل فرد من المسلمين ، وانما هو فرض على الكفاية اذا قام به البعض ، واندفع به العدو ، سقط عن الباقين • يقول عز من قائل : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » (١٦٢) ويقول سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا » (١٦٣) وقد فسر ابن عباس : (انفروا ثبات) أى سرايا متفرقين (١٦٤) وقال سبحانه : « لا يستوى

---

(١٦٠) سورة البقرة ٢١٦

(١٦١) ابن تيمية : مجموعة الفتاوى ، ج ٢٨ ، ص ٨٠ •

(١٦٢) سورة التوبة ١٢٢ (١٦٣) سورة النساء ٧١ •

(١٦٤) رواه البخارى •

القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما » (١٦٥) • وروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول لله صلى الله عليه وسلم بعث بعثا الى بنى لحيان — من هذيل — فقال : (لينبعث من كل رجلين أحدهما ، والأجر بينهما) (١٦٦) •

فهذه الآيات والأحاديث تؤكد على أن الجهاد فرض كفاية ، لأن الجهاد لو كان فرض عين لتعطلت مصالح العباد الدنيوية وفسدت وخربت البلاد ، فوجب أن لا يقوم به الا البعض •

الجهاد فرض عين :

يكون الجهاد فرض عين فى الحالات الآتية :

١ — أن يحضر المكلف صف القتال ، فان الجهاد يتعين فى هذه الحال ، لقوله تعالى : « يأأيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا »(١٦٧)

ولقوله سبحانه : « يأأيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار » (١٦٨) •

٢ — اذا حضر العدو المكان أو البلد الذى يقيم به المسلمون ، فانه يجب على أهل البلد جميعا أن يخرجوا لقتاله ، ولا يحل لأحد أن يتخلى عن القيام بواجبه نحو مقاتلته اذا كان لا يمكن دفعه الا بتكتلهم عامة ، ومناجزتهم اياه • يقول عز وجل : « يأأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » (١٦٩) •

---

(١٦٥) سورة النساء ٩٥.
(١٦٦) رواه مسلم •
(١٦٧) سورة الأنفال ٤٥
(١٦٨) سورة الأنفال ١٥ •
(١٦٩) سورة التوبة ١٢٣ •

٣ ـ اذا استنفر الحاكم أحدا من المكلفين فانه لا يسعه أن يتخلى عن الاستجابة اليه ، لما رواه ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية واذا استنفرتم فانفروا) (١٧٠) أى اذا طلب منكم الخروج الى الحرب فاخرجوا .

متى فتح باب هذا الفرض ؟

لقد فتح باب هذا الفرض ـ كما قلنا ـ فى السنة الثانية من الهجرة النبوية ، ولقد مر الجهاد بأطوار ثلاثة :

الأول :

الاذن بالقتال ، ورد عدوان المعتدين ، وبذلك نزلت أول آية فى الجهاد تقول : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز » (١٧١)

الثانى :

أوجب الله القتال لرد عدوان المعتدين ، دون من كف عن قتال المسلمين يقول سبحانه : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم » (١٧٢) . وقال سبحانه : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (١٧٣) .

الثالث :

فرض الله الجهاد لقتال الكفار والمشركين كافة ، مع البدء بالأقربين

---

(١٧٠) رواه البخارى
(١٧١) سورة الحج ٣٩ ـ ٤٠ .
(١٧٢) سورة البقرة ١٩٤
(١٧٣) سورة البقرة ١٩٠ .

دارا . يقول تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنـــة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » (١٧٤) .

(ج) الغرض من الجهـاد

الاسلام دين سلام يمنع الحرب أيا كان نوعها ، لأن الحرب بجانب كونها اعتداء على الحياة ــ وهى حق مقدس لكل انســان ــ فهى تدمير لمـا تصلح به الحياة .

غير أن الاســلام دين عملى يواجه الحقــائق البشرية والفطرية ويجابه المعضلات بالحل العملى ، فما دامت الموعظة الحسنة لا ترد الظلم والاعتداء ومادام أعداء الاسلام لا يرضون حسن الجوار والعهد القائم على الانصاف وحرية العقيدة ، ومادام أهل الشر ذوى ســلطان خطر فان الحرب واقعة بين الناس ، فلم يقف الاسلام أمام هذه الحقــائق مكتوف اليدين بل واجهها بالحزم والعزم اللذين لازما الرسول فى دعوته طوال حياته ، فأمر بالاستعداد لها : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيــل ترهبون به عدو الله وعدوكم » (١٧٥) . فجعل العدة نفسها للارهاب الذى قد يمنع الحرب ويحفظ السلم .

وحين لم يبق للمسلمين سبيل الا الحرب ، وأصبح حقهم فى ذلك واضحا ، أبيح القتال وكانت السلم هى المقصد الأسمى له لقوله تعالى: « فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » (١٧٦) . ولقوله تعالى :«وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » (١٧٧) .

ان الحرب فى الاسلام انما جاءت لأغراض سامية محددة ، ولم تجىء لأغراض مادية غير مشروعة كتلك التى يقاتل الناس من أجلها ، كسيادة

---

(١٧٤) سورة البقرة ١٩٣ .
(١٧٥) سورة الأنفال ٦٠
(١٧٦) سورة البقرة ١٩٣
(١٧٧) سورة الأنفال ٦١ .

عنصر على عنصر ، أو شعب على شعب ، أو استعلاء ملك على ملك ، أو طبقة من الطبقات الاجتماعية على طبقة أخرى ، أو توسيع رقعة مملكة ، أو أغراض حربية أو استراتيجية ، أو الأغراض الاقتصادية ، أو الاستئثار بالمواد الخام والأسواق التجارية ، أو تمدين المتخلفين عن الحضارة ، أو غير ذلك مما تتخذه الدول وسيلة لاشعال الحرب ونقض العهد وهدم السلم الدائمة ، فليس ذلك فى شىء مما أباح الاسلام القتال لأجله ، ذلك لأن غايات الاسلام انسانية سامية يعم نفعها الناس جميعا، ونظرته علوية تقع على البشر جميعا كاسرة واحدة متكافلة ، والله سبحانه ليس رب المسلمين وحدهم بل رب العالمين أجمعين •

فالاسلام يمنع حرب التوسع ، وبسط النفوذ ، وسيادة القوى فيقول : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين » (١٧٨) ويمنع حرب الانتقام والعدوان فيقول : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب » (١٧٩) • ويمنع حرب التخريب والتدمير فيقول : « ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها » (١٨٠) •

لكن ما هو الغرض من القتال أو الجهاد فى الاسلام ؟

ان هناك غرضا عاما للجهاد كما أن هناك أغراضا خاصة تفصل هذا الغرض العام •

أما الغرض العام للجهاد فقد عبر عنه شيخ الاسلام ابن تيمية بقوله : (والجهاد مقصوده أن يكون الدين كله لله ، وأن تكون كلمة الله هى العليا) (١٨١) •

---

(١٧٨) سورة القصص آية ٨٣ (١٧٩) سورة المائدة آية ٢ •

(١٨٠) سورة الأعراف آية ٥٦ •

(١٨١) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ج ٢٨ ص ٢٣ •

وأما الأغراض الخاصة فهى غرضان اثنان :

الغرض الأول :

الدفاع عن الدعوة الى الله وتأمين وصولها الى عقول الناس دون عائق اذا وقف أحد فى سبيلها بتعذيب من آمن بها أو بصد من أراد الدخول فيها أو بمنع الداعى من تبليغها . قال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » (١٨٢) ويقول سبحانه : « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا » (١٨٣) .

وبعد ذلك فكل من بلغته الدعوة فهو حر فى أن يدخل فى هذا الدين أو لا يدخل،يؤمن أو لا يؤمن «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»(١٨٤)

الغرض الثانى :

رد العدوان والدفاع عن النفس والعرض والمال والوطن عند الاعتداء . قال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (١٨٥) وقال سبحانه : « وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا » (١٨٦) وقال صلى الله

---

(١٨٢) سورة البقرة ١٩٠ ـ ١٩٣ .
(١٨٣) سورة النساء ٧٥ .
(١٨٤) سورة الكهف ٢٩ .
(١٨٥) سورة البقرة ١٩٠ .
(١٨٦) سورة البقرة ٢٤٦ .

عليه وسلم : (من قتل دون ماله فهو شـــهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شـــهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شـــهيد ، ومن قتل دون أهله فهـــو شـــهيد) (١٨٧) •

وهكذا يتضح لنا أن الاسلام حين أباح الحرب فقد علل هذه الاباحة وحدد المقاصـــد والأغراض منهـــا ، فالغرض من الحرب فى الاســـلام يتلخص فى دفع الظلم ، واحترام حق الاقامة ، والحرية فى الوطن ، ومنع الفتنة فى الدين ، وكفالة حرية العقيدة للناس جميعا •

(د) شروط الجندية

ان هناك شروطا أو صـــفات يجب أن تتحقق فى كل من الجنـــدى والقائد لكى يؤدى فريضة الجهاد فى سبيل الله ، فمن اجتمعت فيه هذه الصفات أو الشروط فهو من أهل فرض الجهاد بالاتفاق •

أولا : صـــفات الجندى :

يشترط فى وجوب الجهاد سبعة شروط :

١ ـــ الاسلام ، أما الكافر فلا جهاد عليه ، لأن الله خاطب المؤمنين دون الـــكافرين فقال : « ياأيها الذين آمنـــوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » (١٨٨) وأيضا فان الكافر يدفع الجزية لندافع عنه لا ليدافع عنا •

٢ ـــ البلوغ ، فلا يجب على الصـــبى لقوله تعـــالى « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ماينفقون حرج »(١٨٩) والصبيان من الضعفاء لضعف أبدانهم ، ولأنه عليه الصلاة والسلام رد

---

(١٨٧) رواه أبو داود والترمذى والنسائى •

(١٨٨) سورة التوبة ١٢٣ •

(١٨٩) سورة التوبة ٩١ •

زيد بن ثابت ورافع بن خديج والبراء بن عازب وابن عمر رضى الله عنهم يوم بدر واستصغرهم فقد روى ابن عمر رضى الله عنهما فقال : (عرضت على النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فردنى، ولم يجزنى فى القتال ، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فاجازنى) (١٩٠) •

٣ ـــ العقل ، فالمجنون غير مكلف فلا يجب عليه •

٤ ـــ الحرية ، فلا جهاد على رقيق لقوله تعالى « ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج » والرقيق لا مال له فلا يجب عليه الجهاد •

٥ ـــ الذكورة ، فلا يجب الجهاد على المرأة لقوله تعالى : « يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال »(١٩١) ولا يدخل فى المؤمنين النساء الا بدليل • غير أن بعض الباحثين المحدثين يرى أن الجهاد يجب على النساء أيضا • فاللواء الركن محمود شيت خطاب يقول فى هذا الصدد (ولا يقتصر التجنيد على الرجال البالغين ، بل يشتمل النساء البالغات أيضا ، فقد استصحب الرسول النساء فى غزواته ، بل كان يصحب أزواجه بالاقتراع • ولم يعترض أحد على اشتراك النساء فى الحرب على عهد الخلفاء الراشدين والأمويين • فلما جاء العباسيون ظهر بعض الفقهاء الجامدين ، فأضافوا الى شروط الخدمة العسكرية شرطا خامسا وهو الذكورة ، فحرموا الجيش من عنصر فعال يزيد فى عدده ومعنوياته) (١٩٢) •

لكنا نرى ـــ من جانبنا ـــ أن هذا الرأى لا دليل عليه يؤكده من قرآن وسنة ، بل أن هناك أحاديث صريحة تذهب الى أن جهاد النساء

---

(١٩٠) متفق عليه • (١٩١) سورة الأنفال ٦٥ •

(١٩٢) محمود شيت خطاب : الرسول القائد،الطبعة الثانية ص ٣٠

هو الحج والعمرة فقد روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : (قلت يارسول الله هل على النساء جهاد ؟ قال : جهاد لا قتال فيه : الحج والعمرة) (١٩٣) وفى رواية : لكن أفضل الجهاد : حج مبرور •

وقد جاء فى البخارى ومسلم ما يدل على أن جهادهن اذا حضرن مواقف الجهاد : سقى الماء ومداواة الجرحى ومناولة السهام ، ومعنى ذلك أن المرأة لا تكلف بالخروج ولكن اذا خرجت وحضرت الموقعة كان لها أن تجاهد بما يدخل فى طاقتها من خدمات نافعة للمجاهدين تعينهم فى جهادهم •

فالأحاديث تدل على أنه لا يجب الجهاد على المرأة وعلى أن الثواب الذى يقوم مقام الجهاد الذى يقوم به الرجل هو حج المرأة واعتمارها، لأن النساء مأمورات بالستر والسكون ، والجهاد ينافى ذلك ، لما فيه من مخالطة الأقران والمبارزة والكر والفر والتعرض للاسر ، فلا يكون ملائما لحالات النساء ، كما أن النساء سريعات التأثر بالمناظر الرهيبة التى تنتج عن القتال ، والحرب تحتاج الى جلادة ليست متوافرة فى المرأة ، فتكون الحكمة ظاهرة فى اسقاط الوجوب عن النساء لصيانتهن وتوفير الكرامة لهن •

٦ — الصحة ، فلا يجب على معتل الصحة ، كالأعمى والمريض والأعرج لأنهم لا يقدرون على الجهاد ، ولهذا قال الله تعالى : « ليس الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج »(١٩٤) •

٧ — الطاقة على القتال ، فلا يجب على الفقير الذى لا يجد ماينفق على نفسه وعياله ، لقوله تعالى : « ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج » نعم اذا كان العدو بباب بلدة فلا يشترط وجود النفقة •

وهذا كله اذا لم يطأ الكفار بلد المسلمين ، فان وطؤوها ودخلوا على المسلمين وعلم كل واحد ان أخذه الكفار قتلوه فعليه أن يدفع عن

---

(١٩٣) رواه أحمد والبخارى •

(١٩٤) سورة النور ٦١ •

نفسه بما أمكن ، ويستوى فى ذلك الحر والعبد والمرأة والأعمى والأعرج والمريض • لأنه قتـــال دفاع عن الدين والوطن لا قتـــال غزو فيلزم كل مطيق •

صـــفات الجندى الممتاز :

من صفات الجندى الممتاز ما يأتى :

١ ــ عقيدة راسخة وشجاعة فائقة • يقول ابن تيمية : (من شرط الجندى أن يكون دينا شـــجاعا ••• الناس على أربعة أقسام : أعلاهم الدّين الشـــجاع ، ثم الدين بلا شـــجاعة ، ثم عكســـــه ، ثم العرى عنهما) (١٩٥) •

٢ ــ معنويات عالية •

٣ ــ ضبط قوى •

٤ ــ تدريب جيد •

٥ ــ تنظيم صحيح •

٦ ــ تسليح ممتاز (١٩٦) •

واجب الجنود :

وواجب الجنود بالنسبة لقائدهم : الطاعة فى غير معصية ، فقد روى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وســـلم قال : (من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ، ومن يعص الأمير فقد عصانى) (١٩٧) •

---

(١٩٥) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ج ٢٨ ص ٢٦ •
(١٩٦) محمود شيت خطاب : الرسول القائد ص ٣٢٦ •
(١٩٧) رواه البخارى •

ثانيا : صـــفات القائد :

يجب أن تتوفر فى القائد الصفات التى يجب توفرها فى كل جندى مجاهد ، ويزيد هنا أنه يجب أن يتحلى بالصفات الآتية ، والتى تجعل منه قائدا ممتازا :

١ ـــ أن يكون ذا قرار صحيح وسريع • وهذا يعتمد على الاستعداد العقلى للقائد ، والحصول على المعلومات •

٢ ـــ أن يكون ذا شجاعة شخصية •

٣ ـــ أن يكون ذا ارادة قوية ثابتة •

٤ ـــ أن يكون قادرا على تحمل المسئولية •

٥ ـــ أن يكون ذا نفسية لا تتبدل •

٦ ـــ أن يكون بعيد النظر •

٧ ـــ أن يكون فاهما لنفسيات الآخرين واستعداداتهم •

٨ ـــ أن يتمتع بالثقة المتبادلة بينه وبين من يقودهم •

٩ ـــ أن يتمتع بالمحبة المتبادلة بينه وبين من يقودهم •

١٠ ـــ أن يكون ذا شخصية قوية نافذة •

١١ ـــ أن يكون ذا لياقة بدنية •

١٢ ـــ أن يكون ذا ماض ناصع مجيد •

١٣ ـــ أن يكون عارفا لمبادىء الحرب وتطبيقاتها (١٩٨) •

ومن الجدير بالذكر القول بأن هذه الصفات السابقة كانت متحققة فى شخصية النبى صلى الله عليه وسلم خير تحقق •

---

(١٩٨) محمود شيت خطاب : الرسول القائد ص ٣٠٠ ـــ ٣١٢ •

وقد عد (الفخرى) فى كتابه الآداب السلطانية الصفات التى يجب أن تتوافر فى قائد الجيش ، فقال : قال بعض حكماء الترك : ينبغى أن يكون فى قائد الجيش عشر خصال من أخلاق الحيوان ، جرأة الأسد ، وحملة الخنزير ، وروغان الثعلب ، وصبر الكلب على الجراح ، وغارة الذئب ، وحراسة الكركى ، وسخاء الديك ، وشفقة الديك على الفراريج، وحذر الغراب ، وسمن (تعرو) وهى دابة تكون بخراسان تسمن على السفر والكد (١٩٩) •

واجب القائد :

أما واجب القائد بالنسبة للجنود فهو ما يأتى :

١ ـ مشاورتهم وأخذ رأيهم ، وعدم الاستبداد بالأمر دونهم لقوله تعالى : « وشاورهم فى الأمر » (٢٠٠) وعن أبى هريرة رضى اللهعنه قال : (ما رأيت أحدا قط كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٠١) •

٢ ـ الرفق بهم ، ولين الجانب لهم ، قالت السيدة عائشة رضىاللهعنها: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (اللهم من ولى من مر أمتى شيئا فرفق بهم ، فارفق به) (٢٠٢) •

وروى معقل بن يسار أنه صلى الله عليه وسلم قال : (ما من أمير يلى أمر المسلمين ، ثم لا يجتهد لهم ، ولا ينصح لهم الا لم يدخل الجنة) وروى عن جابر رضى الله عنه قال : (كان رسول لله صلى الله عليه وسلم يتخلف عن المسير ، فيزجى الضعيف ، ويردف ، ويدلهم)(٢٠٣) •

---

(١٩٩) نقلا عن السيد سابق : فقه السنة جـ ٣ ص ٤٥

(٢٠٠) سورة آل عمران ١٥٩ •

(٢٠١) رواه أحمد •

(٢٠٢) رواه مسلم

(٢٠٣) رواه أبو داود •

٣ ــ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى لا يتورطوا فى المعاصى.

٤ ــ تفقد الجيش حينا بعد حين ، ليكون على علم بجنوده ، يمنع من لا يصلح للحرب من رجال ، وأدوات ، مثل المخذل وهو الذى يزهد الناس فى القتال والمرجف الذى يطلق الشــائعات ، فيقول : ليس لهم مدد ولا طاقة.وكذلك من ينقل أخبار الجيش وتحركاته ، أو يثير الفتنة.

٥ ــ تعريف العرفاء وعقد الالوية والرايات .

٦ ــ تخير المنازل الصالحة ، وحفظ مكامنها وبث العيون ليعرف حال العدو .

ثالثاً : من توصيات القادة لجنودهم :

لقد حفل تاريخنا الاســلامى بقادة عظام عرفوا كيف يسوسون جنودهم ويجتلبون النصر على أعدائهم بما يتحلون به من صفات الجندى والقائد الممتازين . وها نحن نسوق توجيها من هذه التوجيهات الخالدة لقائد عظيم هو عمر بن الخطاب الى قائد عظيم هو سعد بن أبى وقاص رضى الله عنهما .

فقد كتب عمر بن الخطاب الى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنهما ومن معه من الأجناد .

(أما بعد ، فانى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فان تقوى الله أفضل العدة ، وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشــد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم ، فان ذنوب الجيش اخوف عليهم من عدوهم .

وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فان استوينا

فى المعصية كان لهم الفضـــل علينا فى القوة ، والا ننصر عليهم بفضـــلنا لم نغلبهم بقوتنا ، فاعلموا أن عليكم فى ســـيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله ولا تقولوا ان عدونا شر منا ، فلن يسلط علينا ، فرب قوم سلط عليهم شر منهم ، كما ســـلط على بنى اسرائيل لمـــا عملوا بمســـاخط الله كفار المجوس ، فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ، اسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم • اسأل الله ذلك لنا ولكم •

وترفق بالمسلمين فى سيرهم ، ولا تجشمهم سيرا يتعبهم ولا تقصر بهم عند منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم ، فانهم سائرون الى عدو مقيم ، حامى الانفس والكراع ، واقم بمن معك فى كل جمعة يوم وليلة ، حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفســـهم ، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصـــحابك الا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحـــدا من أهلها شيئا ، فان لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولوهم خيرا ، ولا تســـتنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصـــلح •

واذا وطئت أرض العدو ، فأذاك العيون بينك وبينهم ، ولا يخفى عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب ، أو من أهل الأرض من تطمئن الى نصحه وصدقه ، فان الكذوب لا ينفعك خبره ، وان صدقك فى بعضه ، والغاش عين عليك وليس عينا لك •

وليكن منك عنـــد دنوك من أرض العدو ان تكثر الطلائع ، وتبث السرايا بينك وبينهم ، فتقطـــع السرايا امدادهم ومرافقهم ، وتتبـــع الطلائع عوراتهم •

وانتق للطـــلائع أهل الرأى والبأس من أصـــحابك ، وتخير لهم سوابق الخيل ، فان لقوا عدوا كان أول من تلقـــاهم القوة من رأيك ،

واجعل أمر السرايا الى أهل الجهاد والصبر على الجلاد ولا تخص بها أحدا بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به اهل خاصتك ، ولا تبعثن طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف منه غلبة أو صنيعة أو نكاية .

فاذا عاينت العدو فاضمم اليك أقاصيك ، وطلائعك ، وسراياك ، واجمع اليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال ، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنعه بك .

ثم اذك على عسكرك ، وتيقظ من البيات (٢٠٤) جهدك ، ولا تمر بأسير له عقد الا ضربت عنقه ، لترهب به عدو الله وعدوك .

والله ولى أمرك ومن معك ، وولى النصر لكم على عدوكم ، والله المستعان) (٢٠٥) .

بمثل هذا فليأمر القادة جنودهم ، وبمثل هذا فليأتمر الجنود حتى يحققوا النصر على عدوهم .

(هـ) نظام القتال فى الاسلام

يمكن القول بأن هناك توجيهات عامة ومبادىء أساسية لنظام القتال فى الاسلام لا تتغير بتغير الأمكنة والأزمنة ، سواء ما يتعلق منها بمرحلة السلم أو بمرحلة الحرب . وبعبارة أخرى هناك قواعد ومبادىء تتعلق بفترة ما قبل الحرب ، وهناك قواعد ومبادىء تتعلق بعملية القتال نفسها .

أولا ــ ما قبل الحرب :

ان الاسلام يهتم اهتماما شديدا باعداد أبنائه لكى يكونوا محاربين أشداء يحرزون النصر على عدوهم من أقرب الطرق وأسرع السبل .

---

(٢٠٤) البيات : الغارات الليلية من العدو .

(٢٠٥) نقلا عن السيد سابق : فقه السنة جـ ٣ ص ٤٨ ــ ٤٩ .

ومن هنا ركز الاسلام على مسألة الاستعداد الدائم لقتال أعدائه سواء من الناحية المعنوية أو من الناحية المـادية •

١ ـ من الناحية المعنوية :

فمن الناحية المعنوية عمل الاسلام على بث روح الجهاد فى المقاتلين وتقوية معنوياتهم فوعدهم بمضاعفة الأجر والثواب لهم ، لأنهم يقاتلون فى سبيل الله لاعلاء كلمته ، ولأنهم يدافعون عن المستضعفين والمقهورين من المسلمين • قال تعالى : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسـوف نؤتيه أجرا عظيما » (٢٠٦) •

ومن أجل هذا حارب الاسـلام عوامل الضعف ونزعات الخوف وغرس فى نفوس المسلمين خلق الشـجاعة والتضـحية والاسـتهانة بزخارف الدنيا فى سبيل نصرة الحق ومحبة الله ورسوله • قال سبحانه: « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسـقين » (٢٠٧) •

وزيادة فى تقوية الروح المعنوية لدى المقاتلين فان الله يمد المجاهدين بالملائكة لتطمئن قلوبهم وتقوى معنوياتهم •

وقد ضرب أسـلافنا الأولون أروع الأمثلة على ارتفـاع الروح المعنوية ، ويكفى أن نشير هنا الى ما حدث فى معركة أحد ، عندما أحاط المشركون بالمسلمين ، وقصد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودافع عنه نفر من المسلمين نحو عشرة حتى قتلوا ، ثم جالدهم طلحة

---

(٢٠٦) سورة النساء ٧٤ (٢٠٧) سورة التوبة ٢٤ •

ابن عبد الله حتى أجهضهم عنه ، وترس عليه أبو دجانة بنفسه ، حتى أن النبل الذى كان يرميـــه المشركون كان يقـــع على ظهـــر أبى دجانة وهو لا يتحرك (٢٠٨) •

فالاستعداد بالقوة المعنوية لا يقل أهمية عن الاســـتعداد بالقوة المـــادية • لأن الجيوش التى لا تؤمن بما تدافع عنه لا ينتظر منها النصر بسهولة على اعدائها ، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوى همة الجيش قبل المعركة ويثير فيهم البطولة وحب الاستشهاد فى سبيل الله • الأمر الذى كان يدفعهم الى بذل كل طاقاتهم فى محاربة أعدائهم ومناجزتهم •

٢ ـــ من الناحية المـــادية :

واذا كان الاستعداد المعنوى مهما فان المعنويات لا تحقق شـــيئا بدون القوة المـــادية •

ولهذا أمر الله سبحانه باعداد القوة المـــادية على قدر الاستطاعة فقال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم »(٢٠٩)•

فالغرض من اعداد القوة هو تأمين السلم والاســـتقرار بارهاب العدو حتى لا تحدثه نفسه باســـتغلال ناحية من نواحى الضـــعف أو التخاذل • قال تعالى « ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » (٢١٠) •

ومن هنا أمر الاســـلام بتعلم فنون القتال واجادتها وعدم اهمالها والتفريط فيها •

---

(٢٠٨) محمد رشيد رضا : تفسير القرآن الحكيم جـ ٤ ص ١٠١ •

(٢٠٩) سورة الأنفال ٦٠ (٢١٠) سورة النساء ١٠٢ •

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : (الرمى فى سبيل الله ، والطعن فى سبيل الله ، والضرب فى سبيل الله ، كل ذلك مما أمر الله تعالى به ورسوله ، وقد ذكر الله تعالى الثلاثة ، فقال تعالى : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منّا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » وقال تعالى : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » وقال تعالى : « ياأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم » وقال تعالى : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم » وقد ثبت فى صحيح مسلم وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قرأ على المنبر هذه الآية فقال : (ألا ان القوة الرمى ! ألا ان القوة الرمى ! ألا ان القوة الرمى !) وثبت عنه صلى الله عليه وسلم فى الصحيح أنه قال : (ارموا واركبوا ! وان ترموا أحب الىّ من أن تركبوا ، ومن تعلم الرمى ثم نسيه فليس منا) وفى رواية (ومن تعلم الرمى ثم نسيه فهى نعمة جحدها) . وفى السنن عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل ، الا رميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته امرأته : فانهن من الحق) وقال : (ستفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه) . وقال مكحول : كتب عمر بن الخطاب الى الشام : أن علموا أولادكم الرمى والفروسية . وفى صحيح البخارى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ارموا بنى اسماعيل فان أباكم كان راميا) (٢١١) .

واذا كان الاسلام يأمر بالتدريب الجيد على فنون القتال وبتحصيل اللياقة البدنية للجنود فانه يحث على انشاء المصانع الحربية لانتاج الأسلحة ويذكر الحديد بصفة خاصة للاستفادة منه فى الأغراض

---

(٢١١) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ج ٢٨ ص ٨ ـ ١٠ .

الحربية • قال سبحانه : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز »(٢١٢)

ومن المسلم به أن القوة التى أمرنا الله عز وجل باعدادها تختلف حسب مظاهر قوة كل عصر ، فالواجب على المسلمين هو متابعة وملاحقة كل تقدم فى هذا المجال •

وعلى الرغم من أن وسائل الحرب قد تطورت بصورة هائلة فى عصرنا هذا الا أن هذا التطور يؤكد باستمرار أن الرمى الذى حث الرسول صلى الله عليه وسلم على تعلمه هو أهم وسائل القوة ، ووسائله الآن متعددة ، فالطائرات والصواريخ والدبابات والمدافع والغواصات والبارجات كلها تعد من أسلحة الرمى التى يجب علينا أن نتعلمها ونجيد الرمى بها لتكون لنا الشوكة على أعدائنا •

ثانيا ــ أثناء الحرب :

يشرع المسلمون فى قتال عدوهم بعد أن يعلنوه بالحرب صراحة ، لأنهم لا يخونون أحدا ولا يغدرون بأحد • قال تعالى : « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين » (٢١٣)•

فاذا أعلنت الحرب ودعا داعى الجهاد فلا يجوز التباطؤ والتثاقل عنه لما يترتب على ذلك من آثار خطيرة • قال سبحانه : « ياأيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل • الا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شىء قدير » (٢١٤) •

---

(٢١٢) سورة الحديد ٢٥ (٢١٣) سورة الأنفال ٥٨ •
(٢١٤) سورة التوبة ٣٨ ــ ٣٩ •

ويعاقب الاسلام كل من يتخلف عن الحرب عقابا نفسيا ، فيهجره أهله حتى زوجه ، كما يهجره المسلمون جميعا ويقاطعونه وينظرون اليه نظرة احتقار وازدراء • قال عز من قائل : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا » (٢١٥) •

ركائز القتال :

يقوم القتال فى الاسلام على عدة ركائز من أهمها :

١ ــ القتال بأسلوب الصف :

ينظم الاسلام مواضعه الدفاعية ويوزع وحداته على تلك المواضع، لقوله تعالى : « واذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ، والله سميع عليم » (٢١٦) •

وابتكر أسلوب الصف الذى لم تعهده العرب حيث كانت تقاتل بأسلوب الكر والفر : يقول تعالى : « ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » (٢١٧) •

٢ ــ استخدام الخداع والكذب :

يجوز فى الحرب الخداع والكذب للتضليل العدو مادام ذلك لم يشتمل على نقض عهد أو اخلال بأمان • ومن الخداع أن يخادع القائد الأعداء بأن يوهمهم بأن عدد جنوده كثرة كاثرة وأن عتادة قوة لا تقهر • فقد روى جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (الحرب خدعة) (٢١٨) •

---

(٢١٥) سورة التوبة ١١٨ •
(٢١٦) سورة آل عمران ١٢١ •
(٢١٧) سورة الصف ٤   (٢١٨) رواه البخارى •

وروى عن أم كلثوم بنت عقبة رضى الله عنها ، قالت : (لم اسمع النبى صلى الله عليه وسلم يرخص فى شيىء من الكذب مما يقول الناس الا فى الحرب ، والاصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها) (٢١٩) وكان الرسول صلى الله عليه وسلم اذا أراد غزوة ورى بغيرها تضليلا للعدو .

٣ — منع من لا يصلح للحرب من الحرب :

يجب على القائد أن يمنع من لا يصلح للحرب من أدوات ورجال، مثل المخذل وهو الذى يزهد الناس فى القتال ، والمرجف الذى يطلق الشائعات وكذلك من ينقل أخبار الجيش وتحركاته ؛ أو يثير الفتنة .

٤ — وجوب الثبات أمام العدو :

لا يجوز الفرار من العدو عند ملاقاته ، بل يجب الثبات حتى لو غلب على ظن المجاهد أنه اذا ثبت أمام العدو قتل ، لقوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا » (٢٢٠) . ولقوله سبحانه : « ياأيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار » (٢٢١) . وقد اعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم (الفرار) من السبع الموبقات . غير أن وجوب الثبات هذا مشروط بشرطين :

١ — أن يكون عدد الأعداء لا يزيد على ضعف عدد المسلمين ، فان زاد عدد الأعداء على المثلين جاز الفرار لجيش المسلمين ، أما اذا كان ضعفا فقط أو أقل من ذلك فانه لا يجوز الفرار منه قال تعالى : « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين» (٢٢٢)

---

(٢١٩) رواه مسلم
(٢٢٠) سورة الأنفال ٤٥ .
(٢٢١) سورة الأنفال ١٥
(٢٢٢) سورة الأنفال ٦٦ .

٢ — أن لا يقصد بفراره أن يتحيز الى فئة من المسلمين ليتقوى بهم على العدو ، أو أن ينحاز الى موضـــع يكون أنسب له فى القتال • قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئـــة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » (٢٢٣) فاذا قصد أحد هذين الأمرين جاز له أن يفر من مكانه •

تلك هى أهم الركائز التى يسير عليها القتال فى الجهاد الاسلامى وهى ركائز لكل زمان ومكان •

آداب الحرب وأخلاقياته

لقد عرف الاســـلام الحرب شرا واقعا بين الناس فأحاطها بأدب عام من تعيين غرضها ، وحصرها فى دفع العدوان وحماية حرية العقيدة، وانهائها بالعهود المصونة العادلة ، وأحاطها — أيضا — بآداب خاصـــة فى أثناء الحرب نفسها ، وفيما يجب أن يكون بين المتحاربين من عرف يرعونه •

من هذه الآداب الخاصة ما يلى :

ا — انذار العدو بالحرب :

فمتى وقع بين المسلمين وغيرهم ما يستوجب الحرب ، وجب على المســـلمين أن ينذروا عدوهم بنيتهم ويعلنوه بالحرب ، ويمهلوه للـــرد والتفـــاهم ان أراد • فالاســـلام لا يعرف الغدر والخيانة حيث يقول جل شأنه : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين » (٢٢٤) •

---

(٢٢٣) سورة الأنفال ١٥ ــ ١٦ •

(٢٢٤) سورة الأنفال ٥٨ •

وقد قال بعض الفقهــاء : ان المهلة التى تعقب ما يســمى اليوم بالانذار النهــائى يجب أن تكون كافية ليخبر العــدو بها أطراف أهله ودولته (٢٢٥) وهو أدب يتفق مع القانون الدولى الحديث •

واذا كان هناك عهد بين المسلمين وغيرهم ، ثم ظهرت علامات تدل على أن العدو يريد خيــانة للمســلمين ويســتعد للهجوم عليهم ، فانه يجوز لهم أن يلغوا هذا العهد الذى كان بينهم وبين هذا العدو ، غير أنه لابد ــ أيضــا ــ من اعلانه بهــذا الالغــاء حيث لا يجوز أن يهاجموه ويأخذوه على غرة (٢٢٦) •

ان هذا لأدب عظيم من آداب الحرب فى الاسلام يظهر مدى كره الاسلام للغدر والخيانة والخديعة التى افتن أهل الحضارة الحديثة فى أحكامها عند مباغتة أعدائهم وأخذهم على غرة من غير انذار لهم بالحرب•

٢ ــ حماية حقوق المستأمن :

والاسلام بعد أن ينذر العدو بالحرب ، وبعد أن تنقطع الحجة ، لا يلجأ الى مثل ما تلجأ اليه الدول فى العصر الحديث من مفاجأة المستأمنين المنتسبين للعدو فى ديارها من رعايا الدولة أو الجماعة التى أعلنت عليها الحرب ، فللمستأمن ــ فى الاســلام ــ حقوق لا يمكن العدوان عليها لمجرد وقوع الحرب بين قومه والقوم الذين ينزل ديارهم ، أو يقع فى متناول سلطانهم ، فلا يجوز الاعتداء عليه بمصادرة ماله ، أو الاضرار بعمله أو شــخصه ، وله كفالة كل ذلك حتى تهيــأ له العودة الى وطنه الأصلى ويدخل فى حماية قومه • وفى هذه الحالة يجرى عليه ما يجرى على المحاربين • قال ســبحانه : « وان أحد من المشركين اســتجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » (٢٢٧) •

---

(٢٢٥) عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة ص ١٠٦ •
(٢٢٦) محمد الخضر حسين : آداب الحرب فى الاسلام ص ١٥ •
(٢٢٧) سورة التوبة ٦ •

لقد بلغ من حرص المسـلمين على احترام حق المقيم فى ديارهم والنازل بها عن رضا منهم قبل الحرب أو حتى أثناء الحرب ، أن قرر فقهاؤهم أنه يجب على الامام اذا وقت للمسـتأمن مدة ألا يجعل هذه المدة قليلة كالشهر أو الشهرين ، فان فى ذلك الحاق العسر به خصوصا اذا كانت له معاملات تحتاج الى زمن طويل فى اقتضائها (٢٢٨) .

وقد بلغ من انصـافهم هـذا الأجنبى المقيم فى ديارهم ، والذي يقاتلون أهله ودولته ، أن أباحوا له التمتع بكامل حريته ، كأن لم تكن بينهم وبين أهله حرب ، مادا مخاضعا لأحكامهم ، مستقيما فى سـيره وعمله ولم يركن الى أذاهم بحال من الأحوال .

أقام الاسلام هذا الأدب مع المستأمن فى حالة الحرب على أساس العدل والانصـاف ، وما الحروب فى جملتها الا نتائج مباشرة لافتقاد العدل والانصاف بين الناس .

٣ ــ مسألة غير المحاربين :

اذا كان الاسلام قد أباح الحرب كضرورة من الضرورات الاجتماعية فانه يجعلها مقدرة بقدرها ، فلا يقتل الا من يقاتل فى المعركة ، وأما من تجنب الحرب فلا يحل قتله أو التعرض له بحال من الأحوال .

فمن القواعد الأساسية التى بنى عليها أدب الحرب فى الاسلام ذلك المبدأ السامى ، وهو الامتناع عن محاربة غير المحاربين وقصـدهم بالأذى ، فهو لا يجيز قتل الشـيخ أو الصبى أو المرأة أو العجـزة ، أو العامة من الصـناع والتجـار والزراع الذين لا يقاتلون أو العباد والرهبان والأجراء ، أو بعبارة أعم تلك الطبقات التى نطلق عليها اليوم اسم (المدنيين) .

---

(٢٢٨) عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة ص ١٠٧ .

هؤلاء المدنيون لا يجوز قتلهم ، وقد بلغ من حرص الاسلام على تجنيبهم ويلات الحرب وابعاد شرها عنهم ، وحصر الضرر فى القوات المقاتلة ان الفقهاء قالوا بوقف القتال اذا وقع بين صفوف المقاتلين من لا يجوز قتله وكان هلاكه محققا بالاستمرار فى القتال ٠

ان القرآن الكريم ووصايا النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين فى تحريم قتل غير المحاربين لتؤكد هذا الأدب العظيم للحرب فى الاسلام ٠

فقد روى عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (انطلقوا باسم الله ، وبالله ، وعلى ملة رسول الله ، ولا تقتلوا شيخا فانيا ، ، ولا طفلا صغيرا ، ولا امرأة ، ولا تغلوا ، وضموا غنائمكم ، واصلحوا واحسنوا ان الله يحب المحسنين) (٢٢٩) ٠

وقد أوصى أبو بكر رضى الله عنه أسامة حين بعثه الى الشام بقوله: (لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ، ولا بقرة ، ولا بعيرا ، الا لمأكله ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع (يريد الرهبان) فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له) ٠

وكذلك كان يفعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد أوصى بقوله: (لا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تقتلوا وليدا ، واتقوا الله فى الفلاحين) ٠ وكان من وصاياه لأمراء جنوده : (ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ، ولا وليدا. وتوقوا قتلهم اذا التقى الزحفان ، وعند شن الغارات) (٢٣٠) ٠

---

(٢٢٩) رواه أبو داود ٠

(٢٣٠) السيد سابق : فقه السنة جـ ٣ ص ٦٠ ٠

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : (وأما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة ، كالنساء والصبيان ، والراهب والشـيخ الكبير ، والأعمى ، والزمن ونحوهم فلا يقتـل عند جمهور العلمـاء ، الا أن يقاتل بقوله أو فعله) (٢٣١) •

٤ ــ عدم القسوة عند التمكن من العدو :

ليس المقصود من الحرب فى الاسلام التنكيل والتخريب ، بل أن تكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الله لا تكون الا حقا وعدلا وانصـافا شاملا للناس جميعا •

ولهذا جعل من آداب الحرب مبدأ الرفق والرحمـة ، فلا يجوز التمثيل بالمقتولين ولا الاجهاز على الجرحى ولا تتبـع الفار من الحرب ولا قتل الحيوان ولا تخريب العمار ، ولا افساد الزروع والأشـجار ولا تلويث الميـاه ولا هدم البيوت • وذلك لأن الحرب كعملية جراحية لا يجب أن تتجاوز موضع المرض بمكان •

٥ ــ الاحسان الى الأسرى :

من أدب الحرب فى الاسـلام الاحسان الى الأسير حتى انه جعله من المستحقين للبر ، متساويا فى ذلك مع أيتام المسـلمين وفقرائهم • قال تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا • انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » (٢٣٢) •

ومن الاحسان الى الأسير فى الاسلام أن لا يفرق فى الأسر بين والد وولده ولا بين أخ وأخيه ، ولا أن يقتل أسير ، وأن يعامل معاملة طيبـة •

---

(٢٣١) ابن تيمية : مجموعة الفتاوى ج ٢٨ ص ٣٥٤ •
(٢٣٢) سورة الانسان ٨ •

٦ ـ مجاملة رسل العدو :

ان من آداب الحرب فى الاسلام أن يجامل رسل العدو بما يليق. وأن يعاملوا بطريقة كريمة تتمشى ومبادىء الاسلام السمحة .

تلك هى أهم آداب الحرب فى الاسلام وفيها ما يدل على عظمة الاسلام ومابنطوى عليه من رحمةحتى فى أثناء الحرب بينه وبين أعدائه .

(ز) فضل الجهاد والمجاهدين

الجهاد اعلاء لكلمة الله وتمكين لهدايته فى الأرض ، وتركيز للدين الحق ، ومن هنا كان أفضل نوع من أنواع التطوع ، فهو أفضل من تطوع الحج والعمرة ، وأفضل من تطوع الصلاة والصوم ، بل ومن أفضل الأعمال على الاطلاق .

قال تعالى : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبدا ان الله عنده أجر عظيم » (٢٣٣) .

وقال سبحانه : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى » (٢٣٤)

(٢٣٣) سورة التوبة ١٩ ـ ٢٢ .

(٢٣٤) سورة النساء ٩٥ .

وقد سئل النبى صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال أفضل ؟ قال : (ايمان بالله ورسوله • قيل : ثم ماذا ؟ قال : ثم جهاد فى سبيله • قيل: ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور) (٢٣٥) وروى عن سلمان الفارسى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (رباط يوم وليلة فى سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه ، ومن مات مرابطا مات مجـاهدا ، وأجرى عليه رزقه من من الجنة وأمن الفتان) (٢٣٦) وقال أبو هريرة : (لأن أرابط ليلة فى سبيل الله أحب الى من أن أقوم ليلة القدر عند الحجر الأسود)

وقال شيخ الاسـلام ابن تيمية (بل المقام فى ثغور المسـلمين كالثغور الشامية والمصرية أفضل من المجاورة فى المساجد الثلاثة ، وما أعلم فى ذلك نزاعا بين أهـل العلم ، وقد نص على ذلك غير واحد من الأئمة ، وذلك لأن الرباط من جنس الجهاد • والمجاورة غايتها أن تكون من جنس الحج) (٢٣٧) •

وقال عبد الله بن المبارك فى أبيات بعث بها الى الفضيل بن عياض:

يا عابـد الحرمين لو أبصرتنـا
لعلمت أنك فى العبـادة تلعب
من كـان يتعب خيـله فى باطـل
فخيـولنا يوم الصـبيحة تتعب
ريح العبير لـكم ، ونحـن عبـيرنا
وهج السـنابك والغبـار الأطيب
ولقـد أتانا من مقـال نبينـا
قول صـحيح صـادق •• لا يكذب

---

(٢٣٥) رواه الشيخان •

(٢٣٦) رواه مسلم •

(٢٣٧) ابن تيمية : مجموع الفتاوى جـ ٢٨ ص ٦٠٥ •

هـذا كتـــاب الله ينطـق بيننـــا
ليس الشهيد بميت ! لا يكذب (٢٣٨)

واذا كان للجهاد هذا الفضل العظيم فان للمجاهد فضـــلا عظيما أيضا ، فهو خير الناس ، فقد روى عن ابن عبـــاس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (ألا أخبركم بخير الناس ؟ ! •• رجل ممســك بعنان فرســـه فى ســبيل الله • ألا أخبركم بالذى يتلوه ؟ ! •• رجل معتزل فى غنيمـــة له يؤدى حق الله فيهـــا ألا أخبركم بشر الناس ؟ ! •• رجل يسأل بالله ولا يعطى به) وسئل النبى صلى الله عليه وسلم : أى الناس أفضل ؟ •• قال : (مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله) قالوا : ثم من ؟ قال : (مؤمن فى شعب من الشـــعاب يتقى الله ويدع الناس من شره) (٢٣٩) •

ويلحق بالمجاهد فى الفضل كل من يعمل عملا يتصل بأعمال الجهاد كالذى يصنع السلاح أو ينقله الى الجنود المجاهدين فى ميدان القتال، فالنبى صلى الله عليه وسلم يقول : (ان الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنـــة • صـــانعه يحتســب فى صـــنعته الخـــير ، والرامى به ، والمد به) (٢٤٠) •

فوائد الجهاد فى سبيل الله والدفاع عن الحق :

ان للجهاد فى سبيل الله فوائد عظيمة يحصل عليها المجاهد هى :

١ ــ أوجب الله تعالى للمجـــاهد الجنة بفضله وكرمه ســـبحانه وتعالى فقـــال عز من قائل : « ان الله اشـــترى من المؤمنين أنفســـهم

(٢٣٨) السيد سابق : فقه السنة ج ٣ ص ٣٨ •

(٢٣٩) متفق عليه (٢٤٠) رواه أبو داود •

وأموالهم بأن لهم الجنة » (٢٤١) وقال : صلى الله عليه وسلم (ان فى الجنة مائة درجة ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين فى سبيله) (٢٤٢) وقال عليه السلام : (من قاتل فواق ناقة وجبت له الجنة) (٢٤٣) •

٢ — أن المجاهد ينال خيرا ، فهو :

(أ) اما أن يستشهد فيدخل الجنة •

(ب) واما أن يرجع بأجر وغنيمة منتصرا •

قال تعالى : « قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين » (٢٤٤) أى النصر أو الشهادة •

٣ — ان جرح المجاهد لا يزول عنه أثر الدم بغسل ولا غيره • قال صلى الله عليه وسلم : (ما من مكلوم يكلم فى سبيل الله الا جاء يوم القيامة وكلمه يدمى اللون لون الدم ، والريح ريح مسك) (٢٤٥) •

٤ — أن الشهيد يرى درجاته فيتمنى أن يحيا ويرجع ليقاتل لما يرى من الكرامة عند خروج روحه وما أعده الله له من الثواب قال عليه الصلاة والسلام : (ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع الى الدنيا وله ما على الأرض من شيىء الا الشهيد ، يتمنى أن يرجع الى الدنيا ، فيقتل عشر مرات ، لما يرى من الكرامة) وفى رواية : (لما يرى من فضل الشهادة) (٢٤٦) •

٥ — أن ثواب الغدوة والروحة فى سبيل الله خير من نعيم الدنيا كلها لو ملكها انسان ، وتصور تنعمه بها كلها ، لأن نعيم الدنيا زائل

---

(٢٤١) سورة التوبة ١١١

(٢٤٢) رواه الشيخان •

(٢٤٣) رواه الترمذى

(٢٤٤) سورة التوبة ٥٢ •

(٢٤٥) متفق عليه

(٢٤٦) متفق عليه •

ونعيم الآخــرة باق ، فعن أنس رضى الله عنه أن رســول الله صلى الله عليه وســلم قال : (لغدوة فى ســبيل الله أو روحة خــير من الدنيــا وما فيها) (٢٤٧) .

٦ ــ ان الله يجعل روح المؤمن المجاهد كالطائر المتنقل ليتنعم بأزاهير الجنة ، فقد قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه : (لمــا أصيب اخوانكم بأحد ، جعل الله أرواحهم فى حواصــل طير خضر ، ترد أنهار الجنــة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى الى قناديل من ذهب معلقــة فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ اخواننا عنا أنا أحياء فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد ؟ فقال الله تعالى : « أنا أبلغهم عنكم » وأنزل الله : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى ســبيل الله أمواتا بل أحيــاء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما أتاهم الله من فضــله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يســتبشرون بنعمــة من الله وفضل وأن الله لا يضــيع أجر المؤمنين » (٢٤٨) .

وقال صلى الله عليه وسلم : (أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت) .

٧ ــ أن الشهيد لا يحس بألم القتل احساســا شــديدا . يقول صلى الله عليه وسلم : (ما يجد الشهيد من مس القتل الا كما يجد أحدكم من مس القرصة) (٢٤٩) .

كل هذا الجزاء وهذه الفوائد انما هى لمن قاتل فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا .

---

(٢٤٧) متفق عليه

(٢٤٨) سورة آل عمران ١٦٩ ــ ١٧١

(٢٤٩) رواه الترمذى .

الفصل الثانى

من الأخلاق غير الفاضلة

١ ـ النفـــاق

النفـــاق هو اظهار الايمان باللســـان وكتمان الكفر بالقلب (١) .
والمنافق على هذا المعنى هو من ستر الكفر وأظهر الايمان باللســـان .
وهذا هو المنافق الكافر .

فالمعنى اللغوى للنفاق خاص بالعقيدة ، غير أنه يعد اسما لظاهرة خلقية اجتماعية خطيرة لها آثارها على مختلف نواحى المجتمع ، وعلى تهيئة الأجيال الصالحة وعلى تربية الشباب ، وعلى اتخـــاذ القرارات أيا كانت .

ومن هنا فالمنافق هو الانسان الذى يظهر غير مايبطن،ويقول ما لايفعل وما لا يعتقد ، أى أن المنافق هو الذى يتظاهر بما ليس فيه على الاطلاق .

والنفاق شكل من أحط أشكال الكذب ، يقول الرســـول صلى الله عليه وســـلم : (أربع من كن فيه كان منافقا خالصـــا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعهـــا : اذا أؤتمن خان ، واذا حدث كذب ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر) (٢) .

كان النفاق كذلك لأنه الباس للشر ثوب الخير ، فهو غش وخداع للنفس والغير ، لأن النفـــاق عملية تبادل بين طرفين ، فقـــد يكون بين الشخص ونفسه ، وقد يكون بين الشخص وشخص آخر . وهو ظاهرة فردية بمعنى أنه ظاهرة يمكن ردها الى عوامل فردية نابعة من الفرد نفسه ، سواء كان هذا الفرد منافقا أو منافقا .

---

(١) الجرجانى : التعريفات ص ٢١٩ .
(٢) متفق عليه .

والنفاق من الناحية السيكولوجية سمة من سـمات الشـخصية السـلبية التى ترجع جـذورها الأولى الى التعود على الكذب وعـدم الموضوعية وعدم التمسك بذكر الحقائق التى يشعر بها الفرد فى داخله ، وكل ذلك ناشىء عن عدم الايمان الصحيح فى نفوس الناس وعقولهم وقلوبهم •

والمنافق من الناحية السيكولوجية شخصية مريضة ، منقسمة على نفسها فالظاهر يتصـارع مع الباطن فى داخلها • وهو أيضا ضعيف الشخصية غير واثق من نفسه ، وهو ذليل ولكنه لا يعترف لنفسه بأنه منافق حتى لا يشعر باحتقار نفسه ، ولكه يسمى نفاقه نوعا من اللباقة ، غير أنه فى واقع الأمر انسان يدين بالخيانة والغـدر ، ويتصف بالخبث والمكر والخداع والدس والوقيعة والرياء والمداهنة ، فهو انسان متلون لا يثبت على حال ، وليس له رأى مسـتقر ، حتى انه يبلغ به الحد أن يمتدح الشىء ونقيضه فى آن واحد ، فهو انسان لا رأى له ولا وزن ، بل هو جدير بنبذ المجتمع له •

كما أن المنافق انسان خائف مرتعد يعجـز عن التعبير عن الرأى الصواب ، وليس من الضرورى أن يكون النفاق هو اظهار خلاف الباطن فقط ، بل ان السكوت عن الخطـأ ضرب من ضروب النفاق السـلبى ، فالسـاكت عن الحق شـيطان أخرس وان كان من الضرورى أن يعبر الانسان عن رأيه بالأسلوب العلمى الموضوعى وبطريقة تتفق مع الشرع والعقـل •

وهذه الأمراض التى تعترى المنافق انما تنشأ من أنه ليس أمينا مع نفسـه ولا مع الناس فهـو يكذب على نفسـه ليرضى النـاس ، ويكذب على الناس ليخـدعهم عن حقيقته • وفى الحق انه لا يخـدع الا نفسه ، فالناس يعرفون حقيقته من التعارض الذى يرونه بين أقواله

وأفعاله ، وحتى ان استطاع أن يخدع الناس فلن يســتطيع أن يخدع الذى يعلم ماتوسوس به نفسه:«يخادعون الله والذين آمنوا ومايخدعون الا أنفسهم وما يشعرون فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » (٣) •

وقد عرض القرآن الكريم للسمات النفسية التى هى أعراض لمرض النفاق على النحو التالى :

١ ــ الكذب على النفس وعلى الناس •

٢ ــ الفسق : « ان المنافقين هم الفاسقون » (٤) •

٣ ــ الافساد فى الأرض • « واذا قيل لهم لا تفســدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون ألا انهم هم المفسدون » (٥) •

٤ ــ السفه ، « واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا انهم هم السفهاء » (٦) •

٥ ــ التظاهر بالايمان ، « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون»(٧) ، «يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » (٨) •

٦ ــ مراءاة الناس بالعبادة « واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس » (٩) •

---

(٣) سورة البقرة ٩ ــ ١٠ •
(٤) سورة التوبة ٦٧ •
(٥) سورة البقرة ١١ ــ ١٢ •
(٦) سورة البقرة ١٣ •
(٧) سورة البقرة ١٤ •
(٨) سورة النساء ١٣٩ •
(٩) سورة النساء ١٤٢ •

٧ــ كثرة الحلف للمؤمنين ليخدعوهم عن كفرهم ، « ويحلفون بالله انهم لنكم وما هم منكم » (١٠) ، « يحلفون بالله لكم ليرضوكم » (١١)، « اتخذوا أيمانهم جنة » (١٢) .

٨ ــ اختلاق الأعذار ، فالمنافق صاحب عقلية تبريرية يعتذر بها عن التخلف عن المشــاركة فى بناء مجتمعه والدفاع عنه ، « ويســتأذن فريق منهم النبى يقولون ان بيوتنـــا عورة وما هى بعورة ان يريدون الا فرارا » (١٣) .

٩ ــ جمال الظاهر وخراب الباطن ، « واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم » (١٤) .

١٠ ــ التآمر على المسلمين ، فشخصـــية المنافق شــخصية تعمل فى الظلام وتثير الفتن والدسائس بين المسلمين بأســاليب مختلفة . « يســتخفون من الناس ولا يســتخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون ما لا يرضى من القول » (١٥) .

١١ ــ الانتهازية ، فالمنافق انتهازى يلعب على الحبلين ، ويحاول أن يرضى جميع المتصارعين محاولا خداعهم والاســتفادة منهم جميعا « الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم ، وان كان للكافرين نصـــيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعــكم من المؤمنين » (١٦) .

---

(١٠) سورة التوبة ٥٦ .
(١١) سورة التوبة ٦٢ .
(١٢) سورة المنافقون ٢ .
(١٣) سورة الأحزاب ١٣ .
(١٤) سورة المنافقون ٤ .
(١٥) سورة النساء ١٠٨ .
(١٦) سورة النساء ١٤١ .

وهذا الموقف المذبذب الذى وقفه منافقو المدينة موقف نفعى لا أخلاقى • وهو لا يقتصر على منافقى المدينة وحدهم بل هو موقف كل منـــافق فى أى زمان ومكـــان « مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء » (١٧) •

فشخصية المنافق شخصية شريرة لا أخلاق تردها ولا مبـــادىء تردعها ، فقد وصفها الرســـول صلى الله عليه وســـلم بقوله : (تجدون الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام ، وتجدون خيار الناس فى هذا الشأن (الامارة) أشدهم كارهية له ، وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه) (١٨) •

أما أنواع النفاق فاننا نستطيع أن نميز من صورها المتعددة نوعين أساسيين هما نفاق التملق ، ونفاق الكفر •

أما الأول فهو تقرب الانسان الى غيره من الناس وبخاصة من كان ذا سلطة وثروة وجاه فيمدحه بما ليس فيه ويتذلل له لتحقيق نفـــع ما وغالبا ما يكون هذا النفع جمع مال أو احراز جاه أو كليهما معا ، وهو فى هذا يرضى الناس بما يغضـــب الله • فالذى يحركه الرغبة والرهبة أو الطمع والخوف •

وقد روى عن محمد بن زيد أن ناسا قالوا لجده عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : انا ندخل على ســـلاطيننا فنقول بخلاف ما نتكلم اذا خرجنـــا من عندهم • قال : « كنا نعد هذا نفاقا على عهد رســـول الله صلى الله عليه وسلم » (١٩) •

---

(١٧) سورة النساء ١٤٣ •
(١٨) متفق عليه •
(١٩) رواه البخارى • وقد ورد فى رياض الصـــالحين ص ٥٦٠ •

والمنافق يبالغ فى الاهتمام بالناس ، ولكن هذا الاهتمام لا ينشأ من احترامه لقيمهم الانسانية أو مصالحهم أو مضارهم ، وانما ينشأ من اعتبارهم وسيلة لتحقيق غاياته ، فهو اهتمام نفعى خالص • ومن ثم فهو يرجوهم ويخشاهم ويعمل ما يرضيهم ويتجنب ما يسخطهم طالما يظن أنهم يحققون هذه الغايات • وهو فى هذه الحال لا يهتم بما يرضى الله أو يسخطه •

والمسلم يجب عليه أن يعامل الناس بما يرضى الله ، وما يرضى الله لابد أن يرضى الناس اذا كانوا مهتدين ، أما اذا كانوا غير ذلك فانه لا يرضيهم ، لأنهم فى هذه الحال يتبعون أهواءهم والذى يتبع الهوى لا يرضى الا ما يغضب الله •

ان فلسفة النفاق تدعوا دائما الى ارضاء الناس أو تحقيق رغبات الجماهير بأى ثمن • وغالبا ما يكون ذلك بارضاء غرائزهم الحيوانية وشهواتهم البهيمية اذا كان هؤلاء الناس من العامة ، أو يكون بارضاء غرورهم اذا كان هؤلاء من الحكام وخاصة الناس • وهذا فى الواقع أقصر الطرق لتحقيق النجاح المادى السريع والرخيص ، غير أنه أقصر الطرق لاستجلاب سخط الله وغضبه •

يقول الامام الغزالى . « اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق ، مشغوفا بالتودد اليهم والمراءاة لأجلهم ، ولا يزال فى أقواله وأفعاله ملتفتا الى ما يعظم منزلته عندهم، وذلك بذر النفاق وأصل الفساد ، ويجر ذلك لا محالة الى التساهل فى العبادات والمراءاة بها ، والى اقتحام المحظورات للتوصل الى اقتناص القلوب ، ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الشرف والمال وافسادهما للدين بذئبين ضاريين ، وقال عليه السلام انه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل اذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو

الفعل ، وكل من طلب المنزلة فى قلوب الناس فيضطر الى النفاق معهم والى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها ، وذلك هو عين النفاق»(٢٠)٠

ويرى الغزالى أن الرياء يعرض المرائى لتشتت « الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق ، فان رضا الناس غاية لا تدرك ، فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق ، ورضا بعضهم فى سخط بعضهم ، ومن طلب رضاهم فى سخط الله سخط الله عليه وأسخطهم أيضا عليه ٠ ثم أى غرض له فى مدحهم وايثار ذم الله لأجل حمدهم ولا يزيده حمدهم رزقا ولا أجلا ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة »(٢١) ٠

أما فيما يتعلق بالنوع الثانى من أنواع النفاق وهو نفاق الكفر ، فيمكن القول بأنه أخبث أنواع النفاق ، لأنه خداع للمؤمنين من أجل الاضرار بهم كافة والقضاء عليهم وعلى ايمانهم ، فليس الأمر هنا أمر نفع لفرد أو دفع ضرر عنه ، انما الأمر هنا أخطر بكثير ، لأنهم فى هذه الحالة أخطر من الكفار ٠

وأوضح من يمثل هذا النوع من النفاق فى عصرنا الحاضر مايسمى بالطابور الخامس وما يقوم به من أعمال التجسس والتخريب والتثبيط واثارة الفتن فى المجتمع الاسلامى لمساعدة العدو الخارجى ٠

لكن ما هى الأسباب التى تؤدى الى النفاق ؟

ان هناك أسبابا كثيرة للنفاق ولكن يمكن ارجاعها الى سببين أساسيين هما الخوف والطمع ، وعدم الايمان ٠

فالنفاق ينتشر فى عصور الانحطاط حيث يبتعد الناس عن الدين والايمان بالله ، ويقوى ايمانهم بالحياة ، ويشتد حرصهم عليها ، وتزداد

---

(٢٠) أبو حامد الغزالى : احياء علوم الدين ج ٣ ص ٢٨٠ ٠
(٢١) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٠٣ ٠

بالتالى أهمية الناس عندهم ، فيزداد الخوف منهم والطمع فيما فى أيديهم من مال أو جاه وسلطة •

وتتضح هذه الظاهرة فى تاريخ الأدب حيث نجد الشعراء يتكسبون بالشعر عن طريق المدح الكاذب ، كما يتضح فى التاريخ السياسى فى العلاقة بين الحاكم والرعية وهى غالبا ما تكون كعلاقة السيد بالعبد والعبد بالسيد •

واليوم نجد أطفال مسلمين يربون على الخوف من آبائهم ، فلا يستطيعون التعبير عن أنفسهم بصراحة وجرأة •

غير أنه يمكن القول ان الفرد قد يلجأ الى النفاق فى أية مرحلة من مراحل العمر ، ابتداء من الطفولة حتى الشيخوخة ، ولكن لكل مرحلة أسبابها ، وبالطبع اذا تكونت عادة النفاق فى مقتبل العمر كان من الصعب التخلص منها فيما بعد • وقد يكذب الطفل أو ينافق ـ مثلا ـ لجذب انتباه الآخرين اليه ، أو للحصول على اعجابهم ، وقد يكذب الفرد دون أن يدرى ، وذلك عندما يتقمص شخصية انسان آخر أو يتوحد معه ، فينصره ظالما أو مظلوما بصورة لا شعورية •

ومن أقوى الأسباب المؤدية الى الكذب ، الذى هو الأساس النفسى للنفاق ، خوف الطفل من انزال العقاب به ، ان هو ذكر الحقائق، ولذلك يسعى للهروب من المسئولية عن طريق الكذب •

وقد يلجأ الطفل الى الكذب والنفاق لكى يرضى الآباء ، والكبار بعامة • وقد يشب الطفل على الكذب والنفاق عن طريق المحاكاة والتقليد وذلك اذا شب فى وسط تنتشر فيه هاتان الظاهرتان وبالمثل فان الموظف الصغير قد يعتنق منهج النفاق اذا كان رئيسه منافقا •

والواقع أن الفرد ـ وهو بصدد اشباع رغباته وأطماعه ـ يجرب طرقا مختلفة ، فاذا جرب منهج النفاق ووجده موصلا الى أهدافه اعتنقه

منهجا له فى مستقبل حياته ، أما اذا فشل هذا الأسلوب فانه يقلع عنه ويلجأ الى أسـلوب آخر لعله ينفع ، فهو شـخص مذبذب كما ذكرنا من قبـل .

فالانسان قد ينافق لتحقيق نفع ما ، أو لدفع ضرر ما ،أو لانزال الضرر بالغير . والانسان ينافق فى جو يسوده عدم الثقة بين الناس ، وعدم الايجابية والجدية فى العمل ، وعدم توافر المناخ الملائم من حيث تحقيق العدالة بين الناس ، وعدم ترجيح كفة غير المنافقين . كما ينتشر النفاق عندما تتحطم القيم والمعايير والمقاييس الخلقية والدينية ، وعندما تنعدم الثقة فى النفس وفى الله : وعندما تغيب المصـارحة بين الناس ، وعندام تصبح متابعة الأمور أمرا شكليا محضا ، وعندما تنعدم مشاركة جميع الأفراد فى كل ما يهم صالح الأمة ، أى عندما تنعدم قيمة الانسان ولا يعتـد به .

والحق أن المشكلة تكمن بالدرجة الأولى فى التربية القـائمة على التخويف فهذه التربية تترك آثارها السـيئة فى الحيـاة الاجتمـاعية والسياسية فى المجتمع المسلم . ففى الحيـاة الاجتماعية يسـود نفاق الضعفاء للأقوياء ، وتملق المرءوسين للرؤساء ، ويصبح مقياس الكفاءة والتقدير هو هذا التملق وذلك النفـاق لبعض ذوى الجاه وأصـحاب النفوذ والسلطان . ومن هنا يتولى المناصب من لا يصلحون لها ، ويبعد عنها من يصلحون من أصحاب العقول الممتـازة والـكفاءات المتميزة ، فيحرم المجتمع بذلك من العناصر الخيرة ، ومن ثم يذبل وينخر السوس فى عظامه .

أما من حيث الحياة السياسية فنسـتطيع القول أن هناك ارتباطا قويا بين الاستبداد السـياسى والنفاق . فالرعاة أو الحـكام يقربون المنافقين الذين يمـدحونهم ويتملقونهم بشتى الوسـائل ، ويبعدون

أصحاب الخلق الرفيع والأكفاء الناصحين ، وهذا ضرب من ضروب الاستبداد والطغيان •

تلك هى أسباب الداء الذى حارت البرية فيه ، فهل له من علاج ؟ وهل لهذا المرض من شفاء ؟

الحق أن النفاق – كما يتضح لكل ذى رأى – مرض خطير ، له أكبر الآثار الضارة على الفرد وعلى المجتمع • وهو يتطلب علاجا حاسما، حتى يعيش الفرد والمجتمع فى مناخ صحى طيب يقوم على حسن الخلق ، وكفاءة الأفراد وحسن أدائهم لأعمالهم ، فى نكران للذات ومراعاة لصالح الجماعة المسلمة •

وللشفاء من هذا الداء العضال يجب أن نهتم بالتربية ، فى البيت أولا ، ثم فى المدرسة ثانيا ، فنربى أبناءنا وبناتنا على التخلق بخلق الاسلام وأدبه • فنعلمهم أن الاسلام لا يعرف غير الحق ، ويعترف بالرأى ويحترمه ، وقد جعل الشورى من أهم أسس مجتمع المسلمين وصفة من صفات جماعة المؤمنين « وأمرهم شورى بينهم » (٢٢) ، والاسلام يحمى الانسان ويحترمه حتى وان خالف فى العقيدة ، ومن هنا فلابد أن نحمى صاحب الرأى المخالف من وطأة العقاب •

واذا تحققت المساواة والعدل فى تطبيق أحكام الشرع والقانون على الجميع دون استثناء كان فى ذلك شفاء من داء النفاق •

كما أن من المفيد فى علاج هذا الداء أيضا أن نضرب بشدة على أيدى المنافقين وأن نقصيهم عن المراكز التى تسللوا اليها بغير حق ، وفى غفلة من الزمن ، وأن نضع فى الوقت نفسه أصحاب الخلق غير

---

(٢٢) سورة الشورى ٣٨ •

المنافقين فى المناصب القيادية وفقا لمعايير الشرف والأمانة والصدق والشجاعة والثقة بالنفس والاخلاص والولاء للمجتمع الاسلامي وجماعة المسلمين .

ولا ينبغى أن ننسى أبدا أن هذا لا يمكن أن يحدث الا اذا ضرب من بيده الأمر المثل الصالح والقدوة الحسنة حتى يتبعه غيره من الناس.

هذا هو علاج نفاق التملق نتيجة الخوف ، أما علاج نفاق التملق نتيجة الطمع فى المال والشهرة والتفاخر بالمال والجاه والمنزلة بين الناس فانه يكون بأمرين : أما أولهما فهو حسن صلة المسلم بالله تعالى، وأما ثانيهما فهو أن يتخذ الانسان هدى الله وحده مرشدا له فى تصحيح فهمه وسلوكه .

فاذا حدث هذا علم الانسان أن الأرزاق والآجال والضر والنفع بيد الله وحده ، ومن ثم يتحرر الانسان من الخوف من الناس ومن الطمع مما فى أيديهم من مال أو جاه ، ومن هنا يجعل مقياسه العمل والتقوى لا التملق والنفاق .

أما علاج نفاق الكفر فهو أن يوجد مجتمع مسلم يلتزم بالاسلام الحقيقى ، فالنفاق نوع من ضلال الكفر ، ولا يكشف الضلال بالضلال وانما يكشف الضلال بالهدى ، ففى المجتمع المسلم تتحدد الفروق بين الناس ، وبها يتميزون . ويعد تعامل الاسلام مع المنافقين حسب ظاهرهم نوعا من العلاج الحكيم ، لأنه لا يجوز أن نسوى بين المجاهر بالكفر والعداوة والمستخفى بهما (٢٣) .

---

(٢٣) د. أحمد عبد الحميد غراب : الشخصية الانسانية فى ضوء القرآن الكريم ص ١٥١ ــ ١٦٦ ود. محفوظ عزام : ظاهرة النفاق وأثرها الاجتماعى . مقال بمجلة الدعوة السعودية .

تلكم هى ظاهرة النفاق ، وهذه هى أسـبابها ، وهـذا هو علاجها قدمناه آملين من الله عز وجل أن يخلصـنا من هذا الداء العضـال انه نعم المسـئول •

٢ ـ الظـلم

الظلم خلق سيىء غير محمـود على الاطلاق ، لأنه انحـراف عن العدل • وهو وضع الشىء فى غير موضـعه المخصـوص به (٢٤) ، وفى الشريعة عبارة عن التعدى عن الحق الى الباطل وهو الجور ، وقيل هو التصرف فى ملك الغير ومجاوزة الحد (٢٥) •

والظلم أنواع كثيرة أعظمها الشرك بالله تعالى ، والظالم فى هذه الحال لا يدخل تحت شريعة الله « ان الشرك لظلم عظيم » (٢٦) • ومن الظلم ألا يطيع الانسـان الحاكم المسـلم ولا يلتزم بأحكامه الموافقة للشرع • ومن الظلم أن يتعطل الانسان عن المكاسب والأعمال فيأخذ منافع الناس ولا يعطيهم منفعة • ومن الظلم الاعتداء على الناس بأى وجه من وجوه الاعتـداء ، سـواء كان هـذا الاعتـداء على الأنفس أو الأعراض أو الأموال • والانسان يظلم نفسه قبل أن يظلم غيره •

من هنا حرم الاسـلام الظلم وتوعد الظـالمين بالعذاب الأليم • لمـا يترتب على الظلم من آثار خطيرة •

فما هى آثار الظلم ونتائجه ؟

وهنا ندع « ابن خلدون » يجيب على هذا السؤال حيث يقول فى الفصل الذى جعل عنوانه « فصل فى أن الظلم مؤذن بخراب العمران »

---

(٢٤) الراغب الأصـفهانى : كتاب الذريعـة الى مـكارم الشريعة ص ٣٥٧ •

(٢٥) الجرجانى : التعريفات ص ١٢٥ •

(٢٦) سورة لقمان ١٣ •

والذى أشرنا اليه عند حديثنا عن ضرورة الأخلاق : « اعلم أن العدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم . واذا ذهبت آمالهم فى اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعى فى ذلك ، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعى فى الاكتساب ، فاذا كان الاعتداء كثيرا عاما فى جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك ، لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها . وان كان الاعتداء يسيرا كان الانقباض عن الكسب على نسبته .

« والعمران ووفوره ونفاق أسواقه انما هو بالأعمال وسعى الناس فى المصالح والمكاسب ذاهبين جائين . فاذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الأحوال ، وابذعر (تفرق) الناس فى الآفاق من غير تلك الايالة فى طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها . فخف ساكن القطر ، وخلت دياره ، وخربت أمصاره ، واختل باختلاله حال الدولة والسلطان ، لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة ..

« ولا تحسبن الظلم انما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور ، بل الظلم أعم من ذلك . وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه فى عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقا لم يفرضه الشرع فقد ظلمه » .

« فجباة الأموال بغير حقها ظلمة ، والمعتدون عليها ظلمة والمنتهبون لها ظلمة ، والمانعون لحقوق الناس ظلمة ، وغصاب الأملاك على العموم ظلمة ، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذى هو مادتها لاذهابه الآمال من أهله » ...

« ومن أشد الظلمات وأعظمها فى افساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق .. فاذا كلفوا العمل فى غير شأنهم واتخذوا

ســخريا فى معاشهم بطل كسبهم واغتصـبوا قيمة عملهم ذلك ، وهو متمولهم فدخل عليهم الضرر ، وذهب لهم حظ كبير من معاشهم ، بل هو معاشهم بالجملة • وان تكرر ذلك أفسد آمالهم فى العمارة وقعدوا من السعى فيها جملة ، فأدى ذلك الى انتقاض العمران وتخريبه » ••

« وأعظم من ذلك فى الظلم وافساد العمران والدولة التسلط على أموال النـاس ، بشراء ما بين أيديهـم بأبخس الأثمـان ، ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصـب والاكراه فى الشراء والبيع •• فتكسد الأسواق ويبطل معـاش الرعايا •• وتنقص جباية السلطان أو تفسد ، ويئول ذلك الى تلاشى الدولة وفساد عمران المدينة ويطرق هذا الخلل على التدريج ولا يشعر به » ••

« وأما أخذها (الأموال) مجانا ، والعدوان على الناس فى أموالهم وحرمهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم فهو يقضى الى الخلل والفساد دفعة ، وتنتقض الدولة سريعا بما ينشأ عنه من الهرج (القتل) المفضى الى الانتقاض » (٢٧) •

فالظلم يخرب الأمم ويهلكها سواء كان ذلك بالتدريج أو دفعة واحدة والذى لا يتعـاطى العدل بأى وجـه من الوجوه فقـد انسـلخ من الانسانية (٢٨) على حد قول الراغب الأصفهانى •

ولمـا كان للظلم هذه النتـائج والآثار الوخيمة التى تودى بالأمم والمجتمعات ، فقد توعد الله ورسـوله الظالمين بالعذاب الأليم وحذرا من الوقوع فيه •

---

(٢٧) ابن خلدون المقدمة ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ •

(٢٨) الراغب الأصفهانى : الذريعة الى مكارم الشريعة ص٣٥٧،٣٥٨

فقد جاء فى القرآن الكريم :

« ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار • مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء » (٢٩) •

« ألا لعنة الله على الظالمين » (٣٠) •

« انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم » (٣١) •

« وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل الى مرد من سبيل وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى » (٣٢) •

وقد جاء فى السنة النبوية :

عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال : « يا عبادى ، انى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا »(٣٣) •

« اتقوا الظلم ، فان الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » (٣٤) •

---

(٢٩) سورة ابراهيم ٤٢ ـ ٤٣ •
(٣٠) سورة هود ١٨ •
(٣١) سورة الشورى ٤٢ •
(٣٢) سورة الشورى ٤٤ ـ ٤٥ •
(٣٣) رواه مسلم والترمذى وابن ماجة •
(٣٤) رواه مسلم وغيره •

« لا تظلموا فتدعوا فلا يستجاب لكم ، وتستسقوا فلا تسقوا وتستنصروا فلا تنصروا » (٣٥) ٠

« صنفان من أمتى لن تنالهما شفاعتى : امام ظلوم غشوم ، وكل غال مارق » (٣٦) ٠

« ان الله يملى للظالم فاذا أخذه لم يفلته » (٣٧) ٠

---

(٣٥) رواه الطبرانى ٠

(٣٦) رواه الطبرانى

(٣٧) رواه البخارى ومسلم والترمذى ٠

المصادر والمراجع

١ ــ القرآن الكريم .
٢ ــ صحيح البخارى .
٣ ــ صحيح مسلم .
٤ ــ موطأ الامام مالك .
٥ ــ مسند أحمد بن حنبل .
٦ ــ سنن النسائى .
٧ ــ سنن أبى داود .
٨ ــ سنن الترمذى .
٩ ــ سنن ابن ماجة .
١٠ ــ الكتاب المقدس .
١١ ــ أبو حامد الغزالى : احياء علوم الدين ، مكتبة الحلبى ــ القاهرة .
١٢ ــ أبو الحسن الماوردى : كتاب أدب الدنيا والدين . المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩١٧ .
١٣ ــ ابن تيمية : مجموع الفتاوى ــ الرياض .
١٤ ــ ابن خلدون : المقدمة ، دار الشعب القاهرة .
١٥ ــ ابن منظور : لسان العرب ــ القاهرة .
١٦ ــ ابن هشام : السيرة النبوية ــ تحقيق مصطفى السقا وزميليه. القاهرة سنة ١٩٣٦ .
١٧ ــ أحمد عبد الحميد غراب (د.) . الشخصية الانسانية فى ضوء القرآن الكريم . القاهرة سنة ١٩٨٥ .
١٨ ــ اسماعيل العجلونى : كشف الخفاء ومزيل الالباس ، القاهرة سنة ١٣٥١ هـ .

١٩ ـــ أحمد عيسى عاشور : الفقه الميسر ، القاهرة .

٢٠ ـــ الراغب الأصفهانى : كتاب الذريعة الى مكارم الشريعة تحقيق ودراسة الدكتور أبو اليزيد العجمى دار الصحوة ـــ القاهرة سنة ١٩٨٥ .

٢١ ـــ الجرجانى : التعريفات ـــ مطبعة الحلبى سنة ١٩٣٨ .

٢٢ ـــ السيد سابق : فقه السنة ـــ القاهرة .

٢٣ ـــ سهير محمد مختار (د.) : محاضرات فى الأخلاق ، القاهرة سنة ١٩٧٦ .

٢٤ ـــ الشاطبى : الموافقات فى أصول الشريعة . الطبعة الثانية سنة ١٩٧٥ القاهرة .

٢٥ ـــ عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة ـــ دار الشروق ـــ بيروت والقاهرة .

٢٦ ـــ عبد الرحمن عزام بطل الأبطال أو أبرز صفات النبى محمد ، القاهرة سنة ١٩٦٤ .

٢٧ ـــ عبد الرحمن بدوى (د.) : الأخلاق النظرية ـــ الطبعة الأولى ـــ الكويت سنة ١٩٧٥ .

٢٨ ـــ عبد اللطيف العبد (أ.د) : الأخلاق فى الاسلام ـــ الطبعة الثانية سنة ١٩٨٥ .

٢٩ ـــ فيصل بدير عون (د.) : دراسات فى الفلسفة الخلقية ـــ مكتبة الحرية الحديثة ـــ القاهرة .

٣٠ ـــ كارادى فو : مقال بدائرة المعارف الاسلامية جـ ٢ دار الشعب ـــ القاهرة .

٣١ ـــ مجمع اللغة العربية : المعجم الفلسفى ـــ القاهرة .

٣٢ ـــ محفوظ على عزام (د.) : نظرات فى الثقافة الاسلامية ـــ دار اللواء ـــ الرياض سنة ١٩٨٤ .

٣٣ ــ محفوظ على عزام (د٠) : نظرية التطور عند مفكرى الاســلام .
ــ دراسة مقارنة ــ دار الهداية القاهرة ١٩٨٦ ٠

٣٤ ــ محفوظ على عزام (د٠) ظاهرة النفــاق وأثرها الاجتماعى ــ
مقال بمجلة الدعوة ــ السعودية فى ٢٨/٤/١٤٠٣ هـ ٠

٣٥ ــ محمد الخضر حسين : آداب الحرب فى الاسلام ــ القاهرة ٠

٣٦ ــ محمد رشيد رضا : تفســير القرآن الحكيم سنة ١٣٥٣ هـ ــ
القــاهرة ٠

٣٧ ــ محمد عبد الله دراز (د٠) : دراسات اسلامية ــ دار القلم ــ
الكويت سنة ١٩٧٣ ٠

٣٨ ــ محمد يوسف موسى (د٠) : تاريخ الأخلاق فى الاسلام ــ القاهرة

٣٩ ــ محمود شيت خطاب : الرسول القائد ــ الطبعة الثانية ــ القاهرة

٤٠ ــ مسكويه : تهذيب الأخلاق ــ مطبعة صبيح القاهرة ٠

٤١ ــ المنذرى : الترغيب والترهيب من الحــديث الشريف ــ الطبعة
الثالثة القاهرة سنة ١٩٦٨ ٠

٤٢ ــ النووى : رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ــ الحلبى
ــ القاهرة ٠

٤٣ ــ وليام ليلى : المدخل الى علم الأخلاق ــ ترجمة وتقديم وتعليق
د٠ على عبد المعطى محمد ــ دار المعرفة الجامعية سنة ١٩٨٥٠

٤٤ ــ
Ghulam Sarwar: Islam, Beliefs and Teachings London, 1982

٤٥ ــ
Islamic Council: A model of an Islamic Constitution, 1983.

٤٦ ــ
M. M. Pichthall: The Meaning of The Glorios Qur'an

المحتـــوى

صفحة

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٣٩١ / ١٩٨٦

مطبعة الأمانة
٣ شارع جزيرة بدران شبرا - مصر